منتديات مجلة الإبتسامة
www.ibtesamh.com/vb
نسخة معالجة ومخفضة

الآثار الكاملة

# عبد العزيز مشري

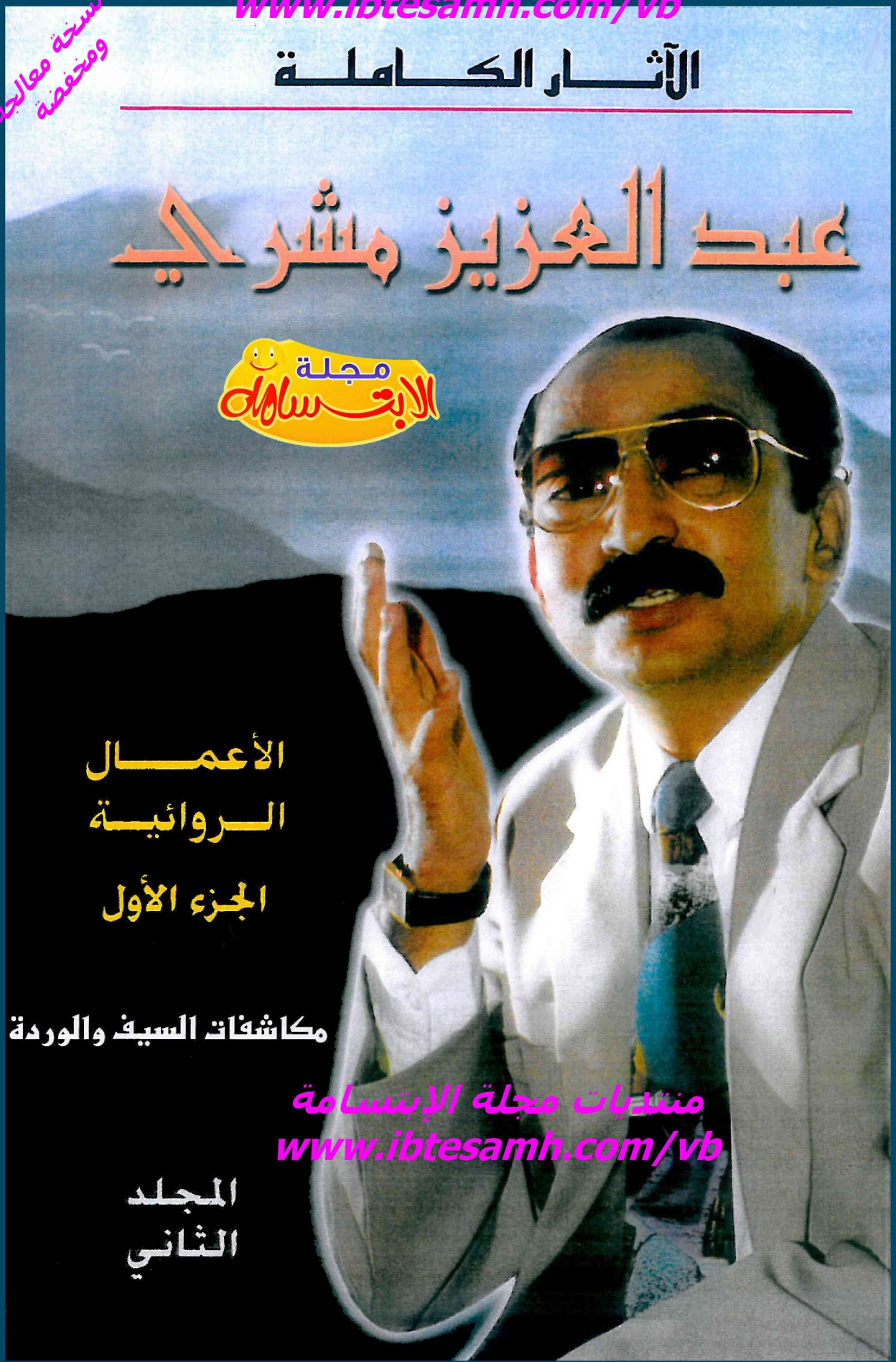

مجلة الابتسامة



الأعمال الروائية

الجزء الأول

مكاشفات السيف والوردة

منتديات مجلة الإبتسامة
www.ibtesamh.com/vb

المجلد الثاني

www.ibtesamh.com/vb

المعالجة وتخفيض الحجم
فريق العمل بقسم
تحميل كتب مجانية

بقيادة
** معرفتي **

www.ibtesamh.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

شكرا لمن قام بسحب الكتاب

www.ibtesamh.com/vb

# عبد العزيز مشري

# الآثار الكاملة

## المجلد الثاني

## الأعمال الروائية

(الجزء الأول)



www.ibtesamh.com/vb

# أيها الأصدقاء

في هذه الوقفة التي نطمح لها بأن تكون . .

وقفة وفاء ..

و إسهام ..

في تكريس ضوء الكتابة ومعناها ، التي عاشها " المعنّى " وانفعل بها موقفاً وإبداعاً.

في هذه الوقفة ، لا ننـــزع كلاماً من بئر الفراغ ، ولكننا نقلّـــب في أعماقنا ،عوالم روايات عبد العزيز مشري، السبع ، التي نشر منـــها – حياً– ست روايات ، وترك لنا يومه السابع " المغزول"، في مســـودته الأولى مكتوباً بخط يده ، و وعده بالاستمرار.

كان أحمد مشري –الشقيق والصديق لمبدعنا – قد قام بصف وجمـــع تلك المخطوطة الروائية الأخيرة على الكمبيوتر، وكنا ننوي نشـــرها لوحدها ، لا لتميزها ، ولا لكونها آخر الأعمال، وإنما لأنها تشـــكل خلاصة رحلة الفارس الذي تهيأ للرحيل.

كان الفقيد حفيا بقارئه وحريصاً على التواصل معه ،في المملكـــة وفي مصر وسائر أرجاء الوطن العربي، ووفاءً لرغبتـــــه الـــتي أفضنـــا في تفاصيلها في آخر ليلة من حياته – قبل رحلة الغيبوبة والممات، رأينا – بعض القريبين من تفاصيل مشروعه الكتابي ، ومـــــن مشـــاعره، و



www.ibtesamh.com/vb

قناعاته – أن تصدر جميع نصوصه الروائية في جزئن، هذا أولهمـــا، وثانيهما سيصدر لاحقاً من بيروت.

وقد استقر الرأي على ضم كتابه المعنـــون" مكاشـــفات الســـيف والوردة" إلى الجزء الأول ، لاعتقادنا بأنه أصدق وأجمل تعبير عـــن تجربته الكتابية ، والروائية ، ونعده مقدمة تحليليـــة لعـــالم الســـرد القصصي والروائي الذي انشغل به واشتغل عليه طيلة حياته الإبداعية المتألقة.

في هذه الوقفة ...

نشعر بشيء من الغبطة في إنجاز صف وجمع هـــذا الجـــزء ودفعـــه للمطابع، بيد أننا نشعر بالكثير من الأسى لأننا ســـنفتقد الحضـــور اليومي لعبد العزيز، حيث كنا نتحسس وجوده معنا، يتابع التصحيح، ويشاركنا الضحك والألم ، أمام بعض المواقف و الاستشـــهادات،و يشدّد محاسبته لنا، إن تساهلنا في علامات الترقيم، ولذا، فإننا نعتـــذر لروحه الطيبة، وننشد تسامحه مع ما يمكن أن يكون قد ســـقط منـــا سهواً –أثناء المراجعة– لتلك العلامات.

في هذه الوقفة،

التي أردناها قصيرة وفي موقعها المحدد، نشعر أن الواجب الأخلاقـــي، يدفعنا لأن نعبر عن عميق شكرنا للأصدقاء: الأستاذ سعيد العنقري لدعمه المالي لبدء مشروع إعادة طباعة الأعمال الكاملة، وكذلـــك



www.ibtesamh.com/vb

للأستاذ الشيخ عبد الكريم الجهيمان، وللأستاذ محمد القشعمي، لجهودهما الكبيرة في العمل على استمرارية تمويل هذا المشروع، الذي نتمنى أن يُكتب له البقاء ليغطي كافة إنجازات الفقيد الغنية والمتعددة.

# أصدقاء الإبداع

## أصدقاء عبدالعزيز مشري

عنهم

**علي الدميني        أحمد مشري**

الدمام -جدة - يناير ٢٠٠٣

*** بهذا العمل يتم أصدقاء الإبداع إصدار الأعمال التالية للراحل وهي:**

ابن السروي وذاكرة القرى والصادر في يوليو عام ١٩٩٩م

المجلد الأول من الأعمال الكاملة ويضم المجموعات القصصية وقد صدر في يناير عام ٢٠٠١

المجلد الثاني من الأعمال الكاملة ويضم الجزء الأول من الأعمال الروائية

***يمكن الاطلاع على سيرة مختصرة لحياة الفقيد في آخر المجلد**



www.ibtesamh.com/vb

**رقم الإيداع بمكتبة الملك فهد الوطنية**

مشري، عبد العزيز

الآثار الكاملة:مكاشفات السيف والوردة، الغيوم ومنابت الشجر،

ريح الكادي، الحصون، صالحة

الدمام ١٤٢٣ هـ

ردمك: ٩-٢٩٣-٤٣-٩٩٦٠

القصص العربية السعودية

ديوي : ٨١٣٠٣٩٥٣١ ١٤٢٣/٥٠/٤٣

رقم الإيداع: ١٤٢٣٥٢٤٣

ردمك:٩-٢٩٣-٤٣-٩٩٦٠

* صدرت المكاشفات في طبعتها الأولى عن النادي الأدبي في ابها عام ١٩٦٦م

* فكرة الغلاف عن "مرأة اليمبس" "لأندريه مالرو"

تمت طباعة الأعمال الروائية (الجزء الأول)

في الدمام / مايو / ٢٠٠٣م



www.ibtesamh.com/vb

عبد العزيز مشري

# مكاشفات السيف والوردة

www.ibtesamh.com/vb

**إلى:**

**علي الدميني**

**صديق الحرف والهجرة**



www.ibtesamh.com/vb

www.ibtesamh.com/vb

# أما قبـــل ..



www.ibtesamh.com/vb

هذه سطور تشبه المكاشفات ، عنيتُ بها مسائل لم أجد إلى إبانتها في ماضي كتاباتي سبيلاً .

كانت تشغلني في الخاطر منها مشاغل دفينة ، و لم أجد بدأً من كشفها على هذه الصورة ، التي تأخذ الذات . والتجربة الخاصة، والمعايشة التي يتصارع بها بنو الإنسان .

لقد كُتبت ومواقف التردد تسكن أحبارها .. جاهدت تجنّب ذكر الخاص الذي أرى أنه لن يفيد المطلع بمفيد ، وحاذرت ألا يكون لـ " السيرة الشخصية "-كما يصطلحون- إقحام ،إلا بقدر احتياجي الكتابي إلى شواهدها .

ربما وجد المجُرب في هذا النوع من الكتابة ، المسالك والوعورة الصعبة في مقابلة الذات .

و لم أرد إلا الحقيقة الآتية من النزف ، ذلك أن الحرص على إضافة كشف داخلي عبر المفهوم والرؤية الكاملة للحياة والإنسان ، والعلاقة التي تربط المعنى بالأشياء المدركة ، فحاولت أن أجعلها ساذجة نقية واضحة ، و لم أتكلف بلغتها ، ولا بأنساغ فكرتها .

منذ سنين تناسجت هذه السطور ، بين المواصلة والانقطاع .. ولقد رأيت أنها لن تنتهي إلا بنهاية نبض العمر ، فآثرت تقديمها



www.ibtesamh.com/vb

بصورتها العفوية ، ولعلك ستمر بمحطات كثيرة فيها ..لا تربط فيما بينها روابط التنامي ، بسبب الانقطاع ثم العودة .

أتحفز لتذكيرك بأنها فصول من ذوب التجربة الخاصة والرؤية الشخصية ، وليست قانونا ،وهي بالتالي .. لم تعتمد سوى النظرة – الشخصية –فقط ، و لم تمد لهاثها نحو أي مرجع ، أو فلسفة أو خلافه

لقد كانت خالصة بذاتها ، خالصة ببديهيتها ، وبتشوهاتها وعيوبها ونقائصها وإيجابياتها .

لم أنو بها المذكرات أو الرسائل

ولكني نويت بها المكاشفة والإضافة .. لعلها تقول شيئا يستحق التأمل . دواخلنا تعج بالتشابكات في غاياتها العجيبة ، ونحن نبالغ أبدا في تجاوزها .. لقد رأيتني أنانيا إن لم أعرضها ، ووجدت أن المرور عليها مرورا شفافا ،قد يكون فيه مغالطة للأمانة الكتابية، ولصدق الداخل .

لا أرغب في أن تتعرف بها عن كاتبها ، بقدر ما أرغب في التعرف إلى أمور قد تتماثل أو تتطابق ، أو تتنافر معك ، و لا أحبذ تناولها بمفهوم الحكم المطلق باعتبارها آخر القانون لكاتبها ، إلا بمقياس زمن ونفسية كتابتها .



www.ibtesamh.com/vb

هذه الفصول هي تجربة الكاتب الخاصة ، التي ترعرعت في أطـــر مفهومه الشامل ، والمتصاعد في رأيه حسب قانون التطور المرحلـــي الزمني ، قل النهايات التي يؤمن ويثق بها أخيراً .

لم أستطع أن أمحو محطات تلّح في الذاكرة عـــبر ســـفر العمـــر، وبقدر ما أراه مؤثراً ، أو لـــه شأن ما بدافع الكتابة ، أو معماريـــة بنائها ومواصلتها .لذا كانت فصولها ملتحمة بالكتابة .. الكتابة هـــي منظورها في حدود التجربة .

ربما قلت شيئاً لم أستطع قوله من قبل ،كان يشكل جزءاً مـــن حمل ثقيل لم يحط أغلبه بعد .

ع . م .

٨-٩-١٩٩٣



www.ibtesamh.com/vb

# الكتـــــابـــة والكتـــــــابـــة



www.ibtesamh.com/vb

لحظة إذْ تنقطع العين التأملية عن متابعة ما تقع عليه ، ولحظة إذ تنكفئ على داخلها ، وتلتحم بنشيج أمانتها ودوامات انفعالاتها..حيث لا معبر ولا ملجأ ولا معوض ، ولا أنيس..إلا الورقة والقلم ، و بعيداً عن كل المحطات المختلطة بالمحيط ، تكون الكتابة ، ليس هروباً من الخارج إلى الداخل فقط..بل هروباً أيضاً من الداخل إلى خارجها ، واستباحة للدماء المحقونة حد الفيضان .

لا أحب أبداً أن أستعير مقولات الكتّاب..مما يروق ، لكي أجعلها مواضع لخواني ، ولا أريد أن أتخذها معونة للخوض في هذا الشأن ،فيما عدا اعتبارها شاهداً ومزكياً ، ودليلاً ثابتاً محكوماً بالتجربة ، وبالحالة والرأي الخاص . فليس هنا قانون حتمي يفرض ثوابته على كل أحباب الورقة والقلم ، ولو صدقنا جدلاً بخاصية القاسم المشترك..فإننا لن نغمض عيوننا عن أهمية ضوابط اللمسة الخاصة بكل مبدع ، مهما رأى ذاته متشابهاً مع الذوات الأخرى .

وإذا كنت سأنصب قلمي في مقام أحوال الكتابة عند مناطق الكتاب الآخرين..فلربما كنت مقلداً . وقد يأخذني الحذر في الكشف عن أحوالي الكتابية الخاصة..مما لا يشابه الآخرين ، أو لا يتناسب مع أحوالهم ، ويأخذني أيضاً شيء من التردد ، وشيء من الخوف والتحفظ لكوني أدخل هذه - المغامرة التي ربما خرجت من ساحتها هزيلاً وخجلاً .



www.ibtesamh.com/vb

ولعل أهداف ما يستدعيني نحو الركض ، في هذه الفصول..شفيع مستحي واحد : الأمانة ..على الأقل أمام ذاتي في انعكاس الرؤية وفلسفتها المقرونة بالتجربة .

عذراً ..

فها إني الآن وبصورة بورجوازية ...استمع بدرجة خفيفة لا تشغلني لإحدى سمفونيات " موتزارت " وعلى الطاولة فنجان قهوة بينما يصدح جاهراً نور كهربائي مسلط على الورق .كل شيء قربي مرتب ونظيف وفي مكانه الذي يليق باختياري إلى حج معقول .

لست سعيداً ، ولا تهدهدني مسرة خارجية ، دمي غسلته اليوم في المستشفى صباحاً ، وقلمي عبأته قبل قليل بالحبر الأسود، والسيجارة المدخنة تجئ وتذهب بين المنفضة وبين شفتي ، وهناك في واجهة وجهي
الباب مغلق ، لا شيء يمكن ذكره حاول أن يعكر صفو قعدتي المتراخية في الهدوء والتمعن..فهل أستطيع أن أكتب ؟

ربما، ربما تهيئني هذه المهيِّئات للكتابة ، وإذا كان أمرها مقروناً بالتهيؤ الخارجي من المعطيات المساعدة..فهذا لا يكفي ، ولا يكفي أن تخلع نعليك وأذنيك وفروة رأسك عند حافة



www.ibtesamh.com/vb

البـــاب ، تدخل حافياً منقطعاً..مستعداً لا مشتاق القلم والنظـــارة والباع الطويل .

إنك تحتاج إلى مقومات أخرى ،قد تدرك بعضها ، وتحتـــاج إلى غمام بالبرد تسوقه رياحـــات الدوافع الآنية ، المتراكمة منذ زمـــن لا تدري متى كانت بدايته ثم إنفعالة يسبقها الرعد حيناً والنسيم الحـــاني أحياناً ، وأشياء أخرى لست بقادر علـــى تفحصـــها ...بعدهـــا، وبـــدون التقيد بشروط إكمال العقد.. لعلك تكتب .

عندما يظن البعض أنه إنفعالة ناقلة لما يملي عليه ، من خفايا تعطي وحي الكتابة ..فربما كان أمراً بعيداً عن نسغ الحقيقـــة ، الكتابـــة لا تكتب أحداً ، ولا تقوده نحو تنفيذ فعلها ، ولا تـــأتي علـــى هيئـــة الإمـــلاء ، ولا قرابة لها بالشياطين ولا بالطواغيت وإخوانهم .

إنها نتاج واعٍ ومدرك ، ويمكن محاورته وتوجيهه الوجهة الـــتي يرغبها منتجها ، دون تبرير ، ولا محاسبة ، وضمن ضوابط لا تخـــرج عن الإرادة والمفهوم والهدف . وإذا كان هناك من يتعلـــق بشـــماعة "اللاوعي" فليجب على سؤال كهذا :

من أين جاء اللاوعي ؟

ألم يكن من الوعي ذاته ، ومن تراكم مبني ومخـــتزن مـــن آلاف الموارد وفتافيتها ؟ .

نعم ...



www.ibtesamh.com/vb

وبدون مداراة . الكتابة نشاط انفعالي ذهني إبداعي ، يفرد دماءه على الورق دون محاباة ، للاعتبارات غير المدركة .

وإذا كانت الانفعالية أحد الضمنيات .. فإنها موقوتة، ومؤقتة بعمر محدد ، لا يلبث أن يلبس حالة أخرى .. قد تكون على النقيض من أساسها الانفعالي عندما كانت تنغمس في عمرها القصير .. وغيابها لا يعني نهايتها ، فهي مربوطة بحياة وفكر حاملها، وبحجم منشطات الدوافع ، وليس من المستحيل ترويضها أو جدولتها، أو تهذيبها بصيغة تتناسب مع زمن الكاتب وظروف الانتزاع الكامن في التجلي .

ثمة أمر يجعل البعض يقف معارضاً أمام قوننة الكتابة المجدولَة ، ويراها نوعاً من المستحيل..باعتبار أنها حالة لا تستجيب للنداء حسب الرغبة .

قد يكون في هذا شيء من الصحة ، لكن علينا محاولة إدراك الأسباب ،كل بطريقته ووسائل وظروف تعامله ، أرى أن الانقياد خلف هذه المفاهيم يدعم المنظور الميتافيزيقيي في اعتبار الكتابة إلهاماً غير مشروط ..تكتب الكاتب ولا يكتبها .

لست من هؤلاء ، وفي ذات الحال .. لم أصل بعد إلى تطبيق الجدولة و التيقن إلى درجة تؤهل لاستحضارها أنى أردت .

إنني لا أعلقها بـ " المزاج " ، ولكنني لا آلفها دون الرغبة الحميمية ، و لم أعهدني أكتب إبداعاً دون إقامة المودة والحميمية



www.ibtesamh.com/vb

معه ، وبالتالي بتزامن هذه مع طبيعة العمل ، فالدراما التي يشكلها النسق الكتابي ، في الغالب تكون من داخل علاقتي - ولو التصورية -والقادمة من الواقع مع نمنمات البناء حتى يكتمل .

أقول في شأن من يقف ضد القوننة المجدولة ، أنه لا مكان للكتابة في مسألة " وحي يوحى " . وإنما لأن الإبداع بطبيعته كالجواد الحر ، الذي يتأذى من الحواجز..تبقى المسألة أيضاً في إطار رفض التحجيم ، سواء في توقيتها أو هيئة ركضها .

والتوقيت المعني بوجهيه : التوقيت الزمني المحدد بالدقائق والساعات ، والليل والنهار ، والصيف والشتاء .

وتوقيت الحالة الاستعدادية للكتابة ، والخاضعة للصدفة والتهيؤ . وكلاهما لا ينقصان على أي حال ، ويختلطان بعوامل أخرى كثيرة منبعثة من ذات الكاتب ومن خارجه .

غير لأنها بمجملها تصنع لولادتها بحكم العادة ،صنوفاً عجيبة ومحيرة أحياناً .

فعند البعض على سبيل الذكر.. تأخذ شكل معاكسة المألوف ، ونبذه خارج قانون العادة المتفق عليها ضمنياً في عيون المحيط الخارجي .

كأن يستخدم الكاتب مصباحاً أحمر ، أو يعلق أمامه صورة مبهمة، أو يكتب وهو واقف أو وسط مقهى يعج بالضجيج ، أو يقفل باب مكتبه ويراجع قفله مرات ليتأكد من إحكامه ، أو يتخلص



www.ibtesamh.com/vb

من ملابسه الداخلية ويبقى بملابس فضفاضة لا وقاية لها على بدنه . حالات كثيرة وبعضها عميق في الغرابة ، ولا قانون لها ..إذ تختلف باختلاف كاتبها المبدع .

وعندما نراها غريبة ..فإننا بالطبع نقيسها من زاوية عجبها في نظرنا أو اختلاف نمطيتها مع عاداتنا ، وقد تبدو عاداتنا في نظر من نراه بعادة عجيبة ..غريبة عليه ، إذاً لا غرابة .

ويمكن لكل بني البشر .. أن تكون لهم في حياتهم وتعاملهم مع صنوفها ، عادات قصوى في الغرابة ، والفارق هنا..أن الكاتب يكشف عاداته ، أو يحرص الآخرون على معرفتها وتفتيت تفاصيلها.

بالطبع يظن أولئك المزاجيون في الكتابة ، والذين يتعاملون معها كمعطى إلهامي غيبي غير اختياري وصعب التمرد حين القبض عليه، على أن مثل هذه الحالات تؤكد نظرتهم بغرائبيتها .

والحقيقة أنها ليست غريبة ولا يحزنون..بل هي نوع من إيجاد التلاؤم ، وكسر القيد النفسي ، الذي يشترطه الإبداع وكما أسلفت- هناك عادات وممارسات في أبلغ صور العجب والدهشة ، يفعلها الناس دون أن يكون لها رابط بحالات الإبداع .

وإذا كانت تلك العادات غريبة عند المبدعين ، في نظر المحيط الخارجي..فالسبب هو: لأنهم مكتشفون فقط ، مثلما نجد مقولة تواجد المرأة في أعمالهم تكشف لنا ذلك ولا نعني تطابق الحساسية وعمق اللمسة ومقدار التجاوب ، وغيره من مميزات المبدع ، وهو



www.ibtesamh.com/vb

الذي لا يمر بالأشياء مرور الكرام ، بل أن الفارق يكمن في هذه المنطقة بالتحديد ، بينما هو لا يختلف عن أي إنسان آخر ، وليس منحوتاً من خامة نادرة تشذ عن بقية خامات الناس ، وإلا لما كان ينصهر بآلامهم وأحلامهم ، ولما كان يستنطق الأشياء الجامدة في إبداعه ، حين يقيم معها العلاقة .

عندما استعد للدخول في المغامرة ..فإنني أكون ممتلئاً بالثقة، ومعبئاً غالباً بشيء من المسرة .. مسرة تفصل بينها وبين إخفائها شعرة ، فتتجدد أحياناً أثناء الكتابة أو تغيب ، وتكون معروفة لديّ، ومقرونة بـ " الحلم " ، الذي تحدثت عنه في فصل سابق – أو بأي تصور جميل بـ " أحلام أخرى " عن مستقبل الأشياء واستشراقاتها، بعضها على مستوى الذات ، وأغلبها على صعيد التبشير الصاعد نحو التحول الخارجي بدافع إزالة التشوه ، وتهذيب التهدمات التي تشكل إزعاجاً في قرارة الخارج .

ومن هنا ..كانت المغامرة محافظة على المنطق الواقعي ، وحادة التأثر به ، وحميمية التعلق بتفاصيله . ربما كان ذلك حرصاً على إيجابية الهدف الكتابي ، والسعي وراء الاستناد على المتكأ الموضوعي المخالف للتفاؤل الوهمي .

لقد وجدتني في أعمالي الكتابية مفرطاً في تحديد معالم الأشياء إلى حد الشك في الانخراط وراء التقريرية ، وطرحت عليّ أسئلة –



www.ibtesamh.com/vb

للأسف خاوية -حول أن الواقعية ذات الخصوصية هي نوع من الإقليمية ، وكنت أتمنى أن أجد محاورين يقرأون العمل بعمق ، أو يستنبطون حوارهم من نسغ العمل ، وكانت ساحتنا المحلية ولا تزال. .تعتبر الإبداع القصصي والروائي بالتحديد . . يكمن بروعته في صورة النص ، ومواكبته للنصوص الأجنبية المترجمة ، و تلك التي جرت خلفها " موديلات" بعض الكتابة العربية الشبابية ، دون التعرض لمبرراتها ، أو محاولة اقتحام مسبباتها .

وكنت شبه منقطع في الكتابة حول هذا المضمون ، المعني بخصوصية واقع القرية الجنوبية ، ومحاكاة النتاج الحياتي الشعبي . وبالطبع كنت مؤمناً به حد العظم ، ومتجاوزاً السهام الموجهة إليه، بأشكالها المباشرة وغير المباشرة . لقد رأى البعض – ويا للفجيعة – أنه طريق يعيدنا إلى الخلف ، وينصرف إلى الماضي..بينما العالم يتقدم في كل مرافق الحياة ، حتى الفلكلور . وهنا كنت استحضر المدعاة الإمبريالية في القرن الأفريقي ،" التي تدعو إلى التخلي عن الرقصات الشعبية والغناء الذي توارثته القبائل السوداء، لأنها متخلفة ، ولكي تساير إيقاع العصر..فيجب أن تستبدل بها رقصات وموسيقى "الجاز" .

الفارق عندنا أنه تأكيد لتلك المدعاة ..تأكيد مجاني وعميق .

وبعيداً عن زاوية الصيغة المجانية تلك ..فقد كنت أجده في الواقع الشعبي للقرية الجنوبية .



www.ibtesamh.com/vb

وهي لم تكن كتابة انتقائية ..بل كانت تحممني بدماء أهلها، وجزئيات معيشتهم اليومية ، تلك التي أعرف فتافيتها ذرة ذرة، وتنفست صفاء سماواتها ، وعبق ودياها وصلابة جبالها .

لا أجدني حميمياً مع حياة المدينة كثيراً ، و لم أتعاطف مع إيقاعاتها الذائبة ، الخرسانية ، فمنذ البدايات القصصية الأولى، والتي لم تكن مدركة للدوافع والأهداف الكتابية بعمق ..كانت تلك الأعمال – وهي في المدينة ، والغربة الثقافية – .. تجعل أبطالها قرويين يتعاملون بالمنطق القروي والهيئة القروية ، وقد صدمتهم مطحنة المدن الرافضة لكل القيم الإنسانية البديهية والبريئة ، لم يكونوا غير متفاهمين مع ذلك الإيقاع .. بل أوجدوا نظاماً توازنياً في تعاملهم معها ونجحوا .. لكنهم في الدواخل لا يتعاطفون مع أشكال معطياتها الجافة .

أعتقد أن المادة الكتابية لا يكفي أن تكون صادقة ، بل تتكئ على النظرة التقليدية في تعريف قوائم نجاح العمل الإبداعي ..ولا أدري بالتحديد ما المقصود بالصدق عندهم في هذا التعريف ..غير أني سأعتبره " عدم تقمص الحس " أو " صدق التخاطب الأمين على سفح المشاعر " ، وعلى أي جانب كان ..فهو لا يكفي ، إذا كان هناك مقومات أخرى هامة .. أذكر منها - وهذا ما يعنينا هنا- الحميمية وهناك من يسميها بـ " التعاطف "و " الانصهار في العمل"



www.ibtesamh.com/vb

.. ليس هذا فما أريد ذكره ليس الموقف الشعوري من العمل بعد اكتماله ، وإنما ما قبل ذلك ، وأثناء الكتابة .

فما لم تكن هناك علاقة متحدة الألفية مع الفكرة قبل إفراغها على الورق .. فإن العمل يظل نوعا من النتاج المقدم على هيئة الواجب .. أو نوعا من إثبات الحضور ، وتأكيد الموهبة ، والخوض الإستعضالي ..سيبقى العمل جميلا وينطق بطلاوته ، لكنه يشبه الوردة البلاستيكية .. التي ربما تجاوزت بجمالها الوردة الطبيعية وعمرها .. غير أنها جامدة لا تمنح الحياة ولا الشذا .

وبالطبع .. فالحالة مشابهة ، عندما تعتمد على القياس الشكلاني المستند على اللغة الجاهزة والمفردة المزخرفة .. جافة كالخشب ليس في غيابها إفراض الوعي عند القارئ فقط ، بل في انطفاء الدماء الحية داخل نسيجها .

النظرة القاصرة إلى الكتابة الواقعية ..تلك التي ترى أنها مدرسة تقولب الفن ، أو تحدد له أطرا لا يتجاوزها ، نظرة ساذجة في أساسها.. إذ أن معناها يتنافى مع الهدف الرحب كأحد شروط الفن ، فالواقعية لا تقف ضد الأشكال والمدارس الفنية إلا إذا كانت تلك الصياغات تؤيد نظرية " الفن للفن " .

ومادام "الفن للفن " فقد ألغينا فعل الفن ، واعتبرناه نشاطا مسليا ، ومصدر إمتاع آني .. مثله مثل أي مصدر إمتاع آني آخر ، وربما سها عن هذا الشرط أيضا ، وقدم القبح الخارج عن



www.ibtesamh.com/vb

خصائص الفن في الشكل والمضمون ، ومهما كانت المبررات .. فإنها تظل واهية ومتطفلة على أساس النظريات الأساسية لمفهوم دور الفن و رسالته ، وتعتمد الغوغائية الواهمة التي ترى الأشياء بعين واحدة ، وفي نطاق ظاهري .

وإذا كانت نظرية أن "الجمال نسبي " ، إحدى تلك الذرائع .. فإننا قد نختلف .. ذلك أن هناك مقومات للجمال تكمن في العمل، مقرونة بتدعيمات ، لا يمكننا الوقوف ضدها .

أما إذا كانت تكمن في المتلقي ..فهذا أمر بديهي ، مشروط بالبيئة الذوقية ، وبالتربية الفنية المتغلغلة في البناء الذوقي المتلقي، هل كل قصة جميلة في نظرك هي ذاتها جميلة في نظري ؟ إنها مسألة بديهية لا تحتاج إلى إيراد المبررات ، وعليها يمكن التطبيق على الفن ، فتعاطفك الجمالي لا يمكن أن يكون قانونا .

غير أن هذا لا يعني قسرا أن العمل الإبداعي ، الذي يعجبني .. يجب أن يعجبك ، إنما نتحدث عن الشرعية العلمية المحافظة على ثبات جمال العمل ، بالرغم من الاختلافات .

لذا كان من المهم معرفة المبدع ، أو موقفه من مضمون عمله وفكرته المطروحة ، فلو أننا قرأنا قصة مثل " الحرباء "لكاتب مثل " البرتومورافيا " لاختلفنا في موقفنا منها ، بينما لو قرأنا بيقين أنها لكاتبها " تشيخوف " ..لكانت نظرتنا مختلفة .



www.ibtesamh.com/vb

العمل الإبداعي لا يقدم جودته بعيداً ، أو منسلخاً عن مبدعه.. إثبات جودته يأتي بمقاييس أخرى منها تميز العمل، وقدرته على إبراز سحنته الخاصة التي تقول دون توقيع : إني نتاج فلان .

وبالطبع ليس في شكل النص الكتابي مثلما يعتمد البعض .. بل في مذهب التناول والمعالجة والحل الكتابي ، وزوايا الالتقاط، ومضمون الفكرة ، وأشياء أخرى .

الحميمية المعنية هنا ..تلك التي تأخذ معنى القرب والالتحام من جانب ، والمعاناة ، التي لا تخرج عن الالتحام بالطبع ، حيث يتحد المعنيان ويأخذان شكل المحبة أولاً .. المحبة المدججة بكل تفاصيل الإغراق والألم ، والهجران ، والتتبع ، والتذمر ، والاصطدام، و الرغبات المؤجلة ، والانفعال و...قس على هذا .

المعاناة المؤلفة عبر التراكم ، والمعاناة المحددة بالمكان والزمن القصير ، والمعاناة الخارجية المنصهرة في الذات ، والخارجة من الذات .

وهي مشروطة بالمفهوم ، وبالتطور المرحلي لوعي الأشياء وقياساتها :

خذ مثلاً :

الأشياء كثيرة ، لم تكن لتصلح مادة لكتاباتي ، وكنت أراها لا تستحق الالتفات ، إذ أن المهم .. كان كل ما له علاقة مباشرة



www.ibtesamh.com/vb

بقضيته الأساسية : الإنسان المربوط بالوطن . أما ما عـــدا ذلــك فإنــه يسقط من حساباتي .

غير أن عوامل المعرفة ، ومستويات الوعي – الإدراك – أصبحــت تخلف ذلك المفــهوم المحّجــم ، وتتجــاوزه إلى ضـــرورة اعتبــار التفــاصيل، هي ذاتها النتف الأساسية التي منها انبنى الهـــم الكبــير العام، وأصبح للأشياء العابرة ماضٍ ، يحتل أهمية في التناول والرصـد. وبها أمكن تعبئة الفراغات الهيكلية في العمل . أصبح الهيكل حياً .

وإذا كان الكاتب غير مطالب بعرض الحلول للقضايا المطروحـــة في العمل .. فهذا لا يعني أبداً أنه لا يجد لحلها تصــــوراً أو علاجــاً ناجعاً . فمقولة : "عليَّ أن أكتب فقط " لا أساس موضوعي لهــــا.. أنت عندما تتعرض لهم ما في كتابتك..فإنك بـــالضرورة تختــزن في داخلك سؤالاً يأتي على هذه الهيئة "والحل ؟ "وهذا الســـؤال هـــو إحدى إيجابيات التأثير الكتابي لدى القارئ .

فلو اعتبرنا العمل ضع سؤالاً كهذا .. فقد أدى هدفــاً ناجحــا، ومصوباً أحياناً . غير أن إحدى كوامن العمـــل الجيــد ..كـــانت مهمـــة: اقتياد القارئ دون مكاشــــفة إلى استضافه بالتســـاؤل، فالإعجاب لا يكفي ، والصورة الجمالية إذا لم يكن لها دور وظيفـــي غير مباشر ، فإنها تظل شكلاً جماليـــاً خاليـــاً ، ولا تتعـــاضد مـــع المضمون.

نعم ..



www.ibtesamh.com/vb

أحد مفاسد العمل في رأيي ..طرحه المباشر للحلول ، وإذا كان ذلك ممكناً .. فإن فيه محاصرة للقارئ ، وخطابية مشفوعة بالوصاية .

فمهمة العمل الإبداعي كسر القوانين ، والتغلغل في ثناياها بحيث تتم عملية بناء قوانين جديدة في الحياة ، غير تلك المعطاة الجاهزة، وفي إمكانية تسمح للفنان أن يقدم - حسب مدركاته - إنجازاً خلاّقاً وجديداً وجميلا ً ، وليس محاكاة المعطى بالعين المباشرة .

نقرأ أعمالاً كثيرة ، فلا نجدنا متعاطفين معها .. فليكن ، لكن أن تخاطبنا بنظرتنا المباشرة للقوانين المعطاة ، فذلك أمر لا نحتاجه، ولا يمكننا أن نعتبره فناً ، ولا أن تقنعنا الموهبة السطحية أو الأكاديمية.. أو فلنسميها : اللا موهبة .

هل رأينا في القانون الطبيعي قطاً يتكلم . أو شمساً تبتسم ، أو شجرة ترقص على طريق المثال ؟!

هذا ما يفعله المبدع . الغباء منا لو حاكمناه بمنطقنا .. منطق المعطى الطبيعي لقوانين الأشياء .

فلتضحك حتى يفض فوك ، وأنت تقرأ :

". . أي أدب هذا ؟ هل رأيتم قمراً يغتسل في البحر ؟ ! ، وهل شاهدتّم ناراً كالثلج ؟ إنه الجنون". - الفواصل وعلامات الإستفهام والتعجب ليست من عنده مرحبا ً . يا سيد ناقد .

والآن ...



www.ibtesamh.com/vb

ما نوع العلاقة بين الكاتب والقارئ ؟

بالطبع لا أتحدث عن دور التأثير ، ونوعية التلقي وإنما عن ذلك الحاضر الغائب أثناء المغامرة الكتابية والذي يضعه الكاتب أمام عينيه، وهو ينسج كتابته عندما أدخل في نظم النسيج ..

يظهر على الفور القارئ المخاطب ، والذي أرى أنه سيقرأ العمل ، وقد لا يكون بالتحديد ذلك الذي كتبت من أجله، فأغلب شخوصي عاميون .. وأعني – القارئ - فهو الذي سيستلم العمل ويتحاور معه .

إن تحديد القارئ أثناء الكتابة ، أمر قد يحدده اتجاه النسيج وخيوطه الأفقية ، وعليه يتم البناء . أود أن أذكر أن " الحلم " الآنف الذكر ، له نصيب ضئيل أو نادر في هذا الشأن ، فهو يقع في منطقة الدافع الكتابي ، المربوط بالمسرة الافتراضية ، ولا أعتمده كقارئ بالدرجة الأولى .. لأنه أمر " يعنيني ، ويعني تصوري الخاص وقوى تقدمي نحو المغامرة في الغالب ، لكنه لا يعني مادة الكتابة أو الهم الخارجي " .

وإذا كان القارئ المفترض قد حدد أثناء العمل .. فإذن لا بد من تحديد مستواه الاستيعابي ، وتصور المدى التأثيري فيه ، ومراعاة كسب ثقته وتعاطفه ، لذا يبقى يلازم النسيج منذ وضع القوام الأول للخيوط الأفقية .



www.ibtesamh.com/vb

وقد كنت أعتبر القارئ المثقف ، والناقد ، هدفين ملحين يلازمانني كملازمة اليدين .. غير أن التجاوز المرحلي لمفهوم الهدف الكتابي ، غير هذين الهدفين ، وأصبحت هناك أهداف أخرى، تتم مخاطبتها ، لضرورة اعتبارية هامة في رأي ، إنها أهداف معنية تستقبل العمل ، وتشكل الرد الأساسي للفعل الكتابي ، وهي معنية بهذا دون ريب .

و لم يعد لدى أي مقياس لنجاح العمل ، التصفيق ، أو الرأي النقدي –غير الحيادي– بالطبع ، إنما هناك مقياس آخر ، تحتاج إلى زمن حتى تتعرف على ردة فعله .

وبالفعل ..

كان لي هذا ، وكان مغايرا ومناقضا أحيانا للآراء المثقفة الجاهزة ، والغير مرضية لي في أحايين ، فردود الفعل الحية ..كانت تصلني حتى من أناس لا يعرفون القراءة والكتابة ، وكنت أجد إعلامية ما أكتبه عندهم ، أبلغ من إعلاميتها عند الآخرين من أصحاب الثقافة . وكنت أتساءل : لماذا ؟ فأجد الجواب – حسب استنباطي – أنهم يجدون ذواتهم فيها .. فالهم العام ، والكشف عن الجذور الإيجابية ، والطموح التبشيري ، وتأكيد الموروث الإنساني..كلها أمور تتخذ مكانها الأول في مضامين العمل والنفس الشعبي المتوفر كمادة أساسية .



www.ibtesamh.com/vb

ومع علمي اليقيني بأن هذا الموضوع ، صعب التناول ، ويستلزم الدراية الفعلية ، والخطورة في القياس والترصد .. فقد كنت أجمع رصيدا طيبا من المكتسب المعرفي ، الذي يقودني نحو المنظور الدقيق للأشياء ، ومحاكاتها بأمانة دقيقة ومستوى مقبول .

مسألة ردة الفعل الحية تلك ، وقياسا بالمستوى الاستيعابي لفهم معطيات الإبداع ..كان يشوب بعضها شيء من التحفظ ، وشيء من السلبية المطعمة بالتقليد .

ففي أحد فصول رواية " الوسمية " وهي الرواية الأولى ، وفي فصل شبه جنسي متحفظ .. لاقى عند بعض المتلقين الأميين نوعا من الرفض ، ولاقى عند البعض الرفض والعداء .

ومنه رأينا أن وضع الكاتب قارئه أمام عينه .. أمر صحي يجب مراعاته ، فعندما نفترض في قرائنا الذين نكتب إليهم ، أو الذين نكتب عنهم .. أنهم يقبلون رؤيتنا كما نرغب ، مسألة قد تكون صحيحة ، إذا أنهم يحملون في بنائيتهم التناقض والتشوه الاجتماعي ، والعادة التقليدية ، وأشياء كثيرة تشكلت في دواخلهم بحكم النمط المعيشي والمفهوم نتعامل معها خفاء ونحن نغمض أعيننا ؟ !

إن الحلول مرحليا ، لا يمكن تحقيقها على الصعيد العام ، فإذن تبقى الحلول فردية ، وترتبط بقدرة الكاتب ، وحذاقته في الاحتيال الكتابي : " الحلول الكتابية " التي توازن بين ما يطرح ، ومراعاة البناء



www.ibtesamh.com/vb

الاجتماعي لدى القارئ .. وبين المستوى الذي يحافظ على القيمة الفنية والهدف المضموني للكتابة .

ولعل من أبلغ المسائل في هذا الشأن تعقيداً ، عدم وجود القانون الضابط ، والقاعدة التي تفصل بين المشروع والممنوع .

فالرقيب الموجود في داخل الكاتب ، والذي يعمل لصالح الرقيب الأكبر الخارجي ، على نفقة إبداع الكاتب " والفنان عموماً " ..هو ذاته ليس لديه قائمة يتعامل معها في المسموح والمرغوب .. وأيضاً قد لا يكون نظام القياس في الأحكام معتمداً على الدوام ، إذ أن الأمور تسير في غير أماكنها ، وتتأرجح بين ضفتين : المزاج ، والأمية الثقافية .

هنا يمكننا أن نعتبر بعض الغموض الإبداعي .. مشروعاً ..لكنه يأتي على حساب الكاتب والقارئ .

فهو قياس الكاتب ، كابح مجاني وتستري ، ويكون مؤثراً تلقائياً في بناء شكل النص ونحت المفردة والضبابية .

وفي القياس المتعلق بالقارئ .. يبقى محدود التأثير ، ومعطل بطئ لإيقاف الحركة الطبيعية المرحلية في بناء قنطرة التوصيل .

هذه الملابسات التعسفية للإخلال بحركة ودور وتطور الإبداع ..هي إحدى فروع المغامرة الكتابية الملازمة للمنتج الكتابي الإنساني . فبالإضافة إلى الفروع الأخرى ، التي منها : انتخاب



www.ibtesamh.com/vb

الفكرة ، ودرجة اصطفاء التوجيه الكتابي ، وصراع اللغة، ومقاومة الفشل أثناء الإبداع ، و القياس التاريخي للزمن النفسي، وفروع متعددة .. تختلف باختلاف الحالة الكتابية ، والعادة ، والتهيؤ وضبط مؤشر الالتقاط وغيره .

فالكتابة الإبداعية هي نوع من الجهاد ، أو " المغامرة " وهي قابلة للهزيمة والانتصار .

لذا أجدني احتاج أحياناً .. أن أقرأ حتى ولو بصوت مسموع أمام أي جسم جامد ،كحائط أو عمود ،أو كرسي ، بعد الانتهاء مباشرة من الإنجاز .. وبالطبع أحتاج إلى شيء من القبول والرضى الخارجي .

* * *

المتوارث ، والترسب المتراكم .

ولا يعني هذا أن على الكاتب التمشي مع تلك المفاهيم . فالمبدع بطبيعته الحقيقة يرفض التشوه ، ويجتهد لإبعاد المفهوم التخلفي، ويرفع رايته في أول المسيرة الطلائعية المبشرة ، ولا يقبل أن يكون تبعاً . وهذا صحيح إذا ما قسناه بدور الفن ، وشرطه الضروري في توفر ساحة الركض غير المسيجة .

إذاً ..



www.ibtesamh.com/vb

كان لابد من إيجاد الحل الكتابي ، ومـــن الموازنـــة ، ومراعـــاة الزمـــان والمكان اللذين يدور فيهما فلك الإنسان المعني .

وعليه ..

فإن الرقيب المترصد بعصاه المكهربة ، ويقف قامعـــــاً ومحـــذراً ومنذراً ، وهو ذاته الذي تربى تحت رعايتك ، لكي يخـــدم المحظـــور الخارجي ، ويأخذ مرتبه ونفقات حراسته على إكراه منك .

وعندما استيقظت على أول نشأته ( أي الرقيب ) .. كان يقـــدم توصياته التي حملها معه من الخارج بشكل مجاني ، وقسري أيضـــاً . وعندما بلغ مرحلة من العمر تغذى فيها متطفـــلاً علـــى زهـــور إبداعاتك.. أقمت معه حلف صداقة وتفاهم ، وأنت مكره ..لكـــي تتقي شراسة الخارج ، وسطوته .

وليس من العدل في القانون الإبداعي ، أن يظل هذا الكابح الجـــلاد يرتع في حنايا تحفزك .. لكنك لا تســـتطيع أن تحاكمـــه ، لأنـــك تضطـــر محتاجاً إلى تعاليمه .. فأضواؤه دائمـــاً حمـــراء ، والتقاطـــه للمخالفات تأتي دون إنذار .

وإذا كان الرقيب قد ترعرع مع الخبرة المكتسبة ، التي نمت مـــع تواجده الدائم في داخل المبدع الكاتب .. فإنـــه ســـيصبح متأقلمـــاً وبديهي اليقظة ، ودقيقاً في ملاحظاته .



www.ibtesamh.com/vb

وهذا لـــه جانبان : أحدهما الرد على اجتياح المحظـــور ، الـــذي قـــد يؤدي إلى إلغاء التواصل بين الكاتب والقارئ .. بنظام القـــانون الخارجي الرسمي .

على أي حال ..

الجانبان يحبطان التعبير ، والرسالة المضمونية للعمل الكتـــابي .. ألا يكفي أن يوازن الكاتب بين إبداعه وبين إنعدام المفهوم الحضـــــاري، في الواقع الاجتماعي ، الذي يتعرض وبهيئة حادة كثيراً من منـــــاطق الكشف في الحياة الإنسانية ، والتي لا يمكن إلغاءها مـــــن معيشـــتنا اليومية .. باعتبارها ضرورة طبيعية.

لم أتعود إعادة كتابة المنجز الكتابي ، وعندما أضطر لتغيـــير بعـــض التعثرات البسيطة .. فإني أجدها تشوه الدفقة الأولى للفعل الكتابي .. لذا استخدم كل ما يمكن من المزيلات البيضاء مثلاً .. لكي لا يبـــدو العمل في تصوري مبرقعاً بالخلل ، و قليلاً جداً ونادراً ما أذكر أنـــني أكتب وأمزق .. فأنا قبل الشروع في ( المغامرة ) .. أتجهز بكل مـــا لديّ من مقومات ، وأحاول أن تكـــون الخطـــوة الأولى في العمـــل واضحة تقريباً .. عندما يكتمل النسيج الكتابي ، ويقوي بعضه بعضاً دون تخطيط مسبق . وعندما تكون هناك ملاحظـــات خارجيـــة .. أحاول أن أفصل بين كونها منطقية ، أو ذوقية ، فكثير من الأعمـــال يختلط فيها التعدد الذوقي ، وهذا أمر مشروع ، والبعـــض بالقيـــاس



www.ibtesamh.com/vb

المنطقي ( وقد يكون حيادي ) ، وهذا أيضاً مشـــــروع .. غـــير أن الصعوبة في المنطقة البرزخية ، التي تحيرّ في أيهما هذا أو ذاك .

في الكتابة الروائية ، تتضخم ( المغامرة ) ، ويكبر هم الصـــــراع، ويتواجد التكرار في القراءة والموازنة ، والترتيب المنطقي .. وإذا كان لا بد مـــن العديل ، فإنه يكون كبيراً ومضنياً ، ويســـــتلزم الصـــبر والتمعن .

لا أعتقد أن هذا قانون ، فللعادة والمقدرة التعاملية دور أساســـي في الأمر .

لا أستطيع أن أنجز عملاً كتابياً في الطقـــس البـــارد ، فالشـــتاء خصمي الذي لا يقبل التصالح ، وعندما يأتي الشتاء .. فإنني أتصـــور كل الأشياء ، حتى الكلمـــات تنتفض – لا أدري إن كان هذا قـــد ارتبط بحالة نقص ( الهيموجلوبين ) في الدم .. وبالتالي أفرز تراكمـــاً نفسياً مع الأيام – ، وإذا كانت هناك كتابة بالغة الإلحاح .. فـــإنني أصطلي بالمدفأة ، حتى أجدني مشوياً بدفئها .

الحرارة الهابطة عند درجة ( ٢٥ ) مئوية فأقل .. تعني لي غيـــاب الحبيب ، والعزلة و الانتفاء ، والغمامية والجمود . شيء واحد يمكنني فيه وبحدس متصنع .. أن أرسل محبوبتي عبر القراءة ، فهي تبقيني على علاقة مع هلوسة الورق ، لذا أجدني منغمساً بين يـــدي من يقـــرأ عليّ ، وذاهباً وراءه في شئون السطور .

فهل يعني هذا –كما قلنا – أنه قانون ؟ .



www.ibtesamh.com/vb

بالطبع لا .. فهناك من يستقبل برودة الشتاء بفرح ، لأنه موسمه ، وإذا كان ( البيات الشتوي ) في القانون الطبيعي سنته بعض الكائنات ، فلا خلاف أن يكون للإنسان فيه نصيب ، بعيداً عن مقاييس الدماء الباردة والدافئة ..لكن هذا لا يكون قاعدة . وعلى أيٍ ..فالعشق الإبداعي الكتابي، لم يمنع واحداً مثل ( ديستويفسكي ) من الكتابة واقفاً ، وبخط كبير ، حتى أن الصفحة لا تستوعب أكثر من سطرين موزعين .

إن ما ينطبق على أي شأن إنتاجي في الحياة يعموميتها .. ينطبق على الكتابة ، على عكس ما يتهيأ للبعض ، من أن بعض حالات الطلق ، أو الإجهاض ، أو الولادة تستوجب طقساً ( تابوياً ) وتهيؤاً وحيوية ، وانقطاعا غير مدرك .

فعندما تجتمع بك تلك الحالة التي تلقي بك إلى الإحساس بتساوي الأشياء ، والخلط بين الجميل والقبيح .. أو عدم القدر على استيعاب أدنى تفاصيل يومك ، أو ساعتك . وليس على المستوى الكتابي ، وإنما على أي مستوى في جزئيات حياتك .. فهذا أمر يعد طبيعياً ، ولا يستحق منك إلا شيئاً واحداً ، أمنحه حقه حتى يعجُ ويمضي .. ثم تصفو ذهنيتك .

وإذا كانت العلمية قد فسرتها بـ : ( الشعورية ، العقلانية، النفسية ) .. فإنها لم تغفل كونها ممراً طبيعياً لا يحتاج للتذمر ، ذوبان معايير الأمور .



www.ibtesamh.com/vb

بالطبع .. نحن نجد أننا قادرون على استيعاب مشاكل الآخرين، ونمتلك القدرة في إمكانية معالجتها . كما أننا نتفق برخاء الكثير من التوصيات والتنظير ، وتعجب كيف لا يتعاملون مع قضاياهم بمنطقنا – هذا البسيط – الذي نقيس به معاناتهم ، وبالطبع.. فإن أبسط تلك المعاناة .. لو عشناها ، لبحثنا عن أي منفذ لتحقيقها .. لكننا قد نعجز في فهمها والتعامل معها بمنطقنا ذاك، الذي ننظر عبره إلى قضايا الآخرين .

وقد يرى الناس أن الحكماء ، والفلاسفة ، والمثقفين .. لا تصعب عليهم مشاكل الحياة ، أو التي تعكر مسرات حياتهم ، باعتبار أنهم قادرون على تجاوزها بفهمهم ، وقدرتهم التحليلية لاستيعابها .

نعم .. قد يكون في هذا شيء من الصحة ، فندما نتفهم جواهر الأمور .. فإن تراكيبها الخارجية ، لا تصعب علينا .. فقاموس التشابهات يعيش في مداركنا .. غير أن جذوة الخلاف تكمن في شيء آخر ، ذلك أن الصعوبة في إقامة التصالح مع التناقضات الخارجية ، وصعوبة تحمل صدماتها ، و الخروج من تأثيراتها المحبطة، أو المقدار الممكن الذي يجعلهم أكبر منها ، وأقدر على اعتبارها أمراً موضوعاً معاشاً منه تستمد مواد الكتابة أحياناً ، ومنة نستخلص قوانين تهذيب تشوهاتها . وعلى أي حال.. فتلك الحالة السخامية



www.ibtesamh.com/vb

التي تسيطر على كياننا ( الشعوري العقلاني النفسي ) ، تأتي أساساً من الخارج بفعل التراكم الذي يحول كميات الأشياء إلى كيفية . وإذا كانت تبلغ مرحلة معجونة بالإحباط واليأس و ( تساوي الأشياء ) واختلاط معاييرها أو ذوبانها على صعيد المقياس .. فإن هذا جزء من التركيب طبيعي ، وعلينا أن نتعامل معه بهذا المنطق لكي لا يشوه نظرتنا واستمراريتنا الحقيقية التي كونتها معطيات ثقافتنا وإيماننا بفعالية إنتاجنا الإبداعي .

علينا وقتها أن نعطي الورقة والقلم إجازة غير محددة ، باعتبار أن زمن الكتابة .. يشترط الثقة ، أنها إنفعالة تستوجب الإخلاص لها لكي لا تذوب المقاييس فنخلط بين أبيضها وأسودها.

إن تلك الحالة المتراخية والقاسية أيضاً .. هي إحدى المعطيات للدافع الكتابي ، وإذا ما كانت تظهر في أثناء البناء الإنتاجي ، وفي لحظة التنفيذ ، فإنها تختار وقتاً تحط فيه كآبتها بثقل شديد ، لا يتلاءم مع الحالة الكتابية .. إنها تفتك بأهم قوى البناء ، الثقة . تجعلها بميزانها في التساوي – . مثل أي مستنسخ آخر لا علاقة له بالإبداع ، مثلما تساوى بين الرضى وعدم الامتنان . وتتخذ صورة نفسية تظل مربوطة بذلك العمل حين يُقرأ أو يُذكر ، وبالتالي يكون الموقف النفسي منه رديئاً ، ولا يعني هذا بالضرورة أنه غير جيد .. غير أن الثقة المدعومة ببعض الرضى ، تكون قد تعرضت لتصعيد خلخل بين طوباها .



www.ibtesamh.com/vb

لذا كنت أرى ضرورة إعطاءها زمنها .. إنها لا تلبث أن تطوف بقدر ما .. ثم تضمحل ، وتعود حساسيات الالتقاط الفني في أماكنها ، وتتجدد أحياناً بثقة أكبر .

وليس من الصحة أن يفقد الكاتب ثقته ، إذ أن وقتاً يمضي طويلاً.. لا يمسك فيه بالقلم ، فيظن أن نبعه قد نضب ، وعندما يعود إلى ما يكتب .. يجد أنه غريب عن تلك الكتابة ، وكأن شخصاً آخر هو الذي أنتجها .

لا خلاف .. فقد رأيت في أوقات ما ، أنني لن أستطيع الكتابة بعد الآن أبداً ، بالذات تجاه العمل الروائي ، وأعجب كيف تمكنت من ترويض طول البال والملاحقة .. حتى كتبت هذا العمل ؟ !

ولكن يبدو أن الأمر لا يؤخذ بهذا المتناول .. فالفترة الاستغرابية ليست خارجة عن التصور الإدراكي لفعل الأشياء ، حتى وإن بدا لنا نقيضها .

بالطبع ، فإن وقتاً يأتي مدججاً بالثقة والاندفاع ، ويريك أن أشياء كثيرة عبرتها ، و لم تلتفت إليها.. لكنك الآن تراها جديرة بالتناول والمنازلة .

إن مراعاة الرضى في حالات تصور رد الفعل الإيجابي عند المثقفين ، أو النقاد ، أمر يقيد الإبداع الكتابي ، وينتقص من مستوى أمانته والحميمية معه ،لقد حاولت أن أكون طالباً مهذباً في هذا الشأن، ومقايضاً مطيعاً ،ومراعياً على نفقة الكتابة .. لكني



www.ibtesamh.com/vb

بعد وقت .. ما لبثت أن أغلقت علي الباب ، وحاولت أن أجعل كل الخارج بالخارج دون الباب . . وقد أحدث هذا كثيرا من التشوشات ، لكنني لم آخذ بها .

كنت فقط .. أعارك الكتابة ، وأضمد جروحها ، وأمسح مسحة المحبة والصفاء على سطورها المسكونة بعالم خاص أحبه وأتعاطف معه ، وأدعوه بأسلوب ضيافي بدوي ، لنتبادل المودة على قدر ما يقيم علاقته معي بلغته هو وأسلوبه .

أما بعد ذلك .. فلا أراني مطالبا بإرضاء المناهج النقدية ، أو من لا يرضى ، وأعتقد أن هذا شرعي.. فالاختلاف ، أو تعدد زوايا المنظور .. لا يمكن استقطابها ، ولو حدث وكان الرضى كاملا.. فإن في العمل شيئا من النقص .. ذلك يعني مخالفته للقانون الطبيعي لفعل الكتابة . إيجاد السؤال ، أو الرضى ، أو عدمه ، لا يعني الخلل دائما ولا يعني قصور العمل .

أليس من السهل علينا – مثلا – أن نخطئ بكاتب مثل ( كافكا ).

نعم ..

فلو وضعنا ما كتبه تحت المجهر العربي .. لربما وجدناه فارغا ومتعصبا للصهيونية ، ولرأيناه كالبالونة ، التي جعلوا منها العالية المنتفخة .. بينما هو لم يقدم في إبداعاته ما يلفت النظر ، أو يستحق كل هذا الاهتمام .. لكن هذا لا يلغي جوانب أخرى .. تفيدنا بشكل أو بآخر .



www.ibtesamh.com/vb

لم أحب ( كافكا ) و لم أتعاطف معه .. هذا موقفي ، و لا غبار.. لكن هذا لا يعني أنني أرفضه ككاتب ينفحك مع المعطيات فحين يتحول إنسان ( المسخ ) إلى صرصار . فإن هذا يحتاج إلى وقفة ، بالرغم من تعارضك معه ، وقناعتك بأن المبدع يحاسب كوَحدة متكاملة موقفا و إبداعا . كذلك مثلما نتعامل مع كشوفات ( أنيشتاين ) العلمية ، أو (فرويد) .. فإذا كنا أغلقنا عطاءاتهما ، ونبذناها بمنظار العدسة القومية .. فإننا سنجني على نفوسنا ، وفي ذات الوقت لن نستطيع أن نحرر تبعيتنا بموقفنا هذا .. لكننا نقف عند حد معين في التعامل مع عطاءهما ، فنسلط نظرتنا المدركة في جوانب خارجة عن معطياتهما العلمية المفروضة علينا وعلى كل بني الكون ، ويحكمنا إلى العدالة معهما القانون العلمي .

وإذا كان التناول النقدي ببديهته يكون غير محايد ، ويسير عرفا في طريق منهجي محدد .. فعلينا أن نتوقع منه القبول والاستحسان، أو النقيض الكامل .

إذا فليس على الكاتب المبدع أن يشغل قلمه بهذه الملابسات، يهمه أن يكون صادقا وأليفا ومحبا لإبداعه ، وسيكون دون ريب .. في إطار منهجه الكتابي الذي أختطه في إطار منطلقه الأيدلوجي دون محاباة .

بديهي .. أن جانب المقارنة يبدو بعيدا ، وربما نائيا .. حينما استشهد بكاتب مثل ( كافكا ) أو عالم مثل (أنشتاين ) أو



www.ibtesamh.com/vb

( فرويد ) .. فالموضوع يبحث في غاية ( الكتابة والكتابة )من منظور شخصي ضمن التجربة . ولكن الأمر يستدعي أحيانا توضيح بما هو معطى لدينا ، ويستوجب الالتفاتة إلى أبعاد قد تبدو بعيدة ، بينما هي تدخل وبشكل ضروري أحيانا ، لربطها بالاتجاه المؤدلج والرؤية المنهجية . إذ أننا مهما بالغنا في جذورنا للابتعاد عن مقولة ( الفن مع المنهج ) فإننا نغالط أنفسنا . وذلك لأن الإبداع المطلق يبقى بلا لون ولا طعم ، وهذا يناقض الداعم الأساسي الذي هو مستحيل ، حتى وإن كانت الكتابة خارج الالتزام، فالالتزام قد يكون التزاما بمفهوم اللا التزام نفسه .

وإذا ما اعتبرنا أن الكاتب المبدع ، يهتم تلقائيا بطرح التبشير والاستشراف ، ويجهد في سبيل التعرية والكشف ، ووصف التشوه بصفته نقيض الصلاح .. فهذا لوحده جوهر مهم لا يحتاج إلى مبرر ، وإذا كان الخلاف قائما .. فهذا لا يعني سقوط العمل ، و لا يعني أيضا براءته من الخلل .. إذا فلنأخذه كأمر طبيعي لاستمرار الإبداع ، لضرورة البحث والتجديد ومخالفة التقليد ، مخالفة مدركة ، وليس لكونها مخالفة فقط ، وهذا لن يحدث ما لم تكن المخالفة ، أو المعارضة .. إذ أنها تقود مرحليا إلى تصحيح الرؤية لدى



www.ibtesamh.com/vb

الكاتب ، وتفتح الطريق نحو تطور المفهوم وتقدمه عبر ديمقراطية الأخذ والرد في هذا الشأن .

هذه التفاصيل وغيرها من المتشابهات شغلتني زمنا طويلا .. فقد بقيت سبع سنوات : (موت على الماء ) ٧٩ - إلى ( أسفار السروري ) ١٩٨٦ م مضت بين المجموعتين ، ترددت فيها أن أصدر شيئا . كنت فيها أكتب كثيرا وأتوقف بعدها طويلا دون النشر ، وكان عملي كمحرر أدبي في الجريدة وفي هذه المرحلة .. يتطلب الكتابة .. لكنني أتحاشى أن تكون إبداعية .. فتأتي على هيئة ملاحظات أو تعليقات أو مقالات وما شابه .

والحقيقة أن تلك المرحلة لم تكن مقصودة ، بل كانت تنسج زمنا في التساؤل والتأمل والحيرة أحيانا وبصورة تلقائية ، لم أجد فيها الثقة التي تدفعها الرغبة في الظهور بشيء جديد.

وقد تساءلت مرارا : لماذا ؟

فلم أجد جوابا يطفئ ولعي بطبع تجاربي الأخيرة ..غير سؤال كان يقلقني ، لأني أخاف أن يمتد الزمن به : هل أنت مقتنع بان الذي تكتبه .. يحمل الفن والمنظور ، ليصل إلى الناس ويقول شيئا ؟ !

وجاء نتاج تلك المرحلة المحتشدة بالتساؤل والتأمل ، وفقد الثقة بالرجوع إلى الكتابة الإبداعية أحيانا ، وشبهات حول جدوى الكتابة ، وتحديد صنف المكتوب من أجله ، أشياء من هذا القبيل..



www.ibtesamh.com/vb

لم تكن لتأخذ مكانها اللائق في البال من قبل ..جاء بولادة مختلفة، وبطرح مختلف ، وعالم مختلف في المادة الكتابة : رواية ( الوسمية ) . لأمر رأيته وقتها مقنعا ومعبرا عن المفهوم لدور الكتابة القصصية، والتحاور معها بحميمية بالغة التعاطف وعالية الحساسية في تفاعلي مع عالمها ، وشعوري بتأدية القيمة الأمانية والخلق الإنساني لعالم القربة بعفويته وصدق تعابيره المعيشية اليومية ، ودلالات لغته، ونحت مفردات حياته التي أقامها مع وسيلة إنتاجه وطبيعة علاقته الجماعية بها .

لم أكن لأعنى كثيرا بالشكل الجمالي ، الذي بنيته في الماضي مع القلم .. لقد تركته يأتي دون تكلف ولا صناعة .. قلت : سيأتي إن كان قد استطاع أن يصنع له هيئة دون أن أقيم له المحافل ، سأكتب فقط باللون الذي أرى أنه يرضيني بأمانته وصدقه ، وسأجعل من لغة أولئك القوم ( قرى الجنوب ) ، المكان الأول دون تكلف..لقد رأيت فيها الفن والدلالة .

قلت : لتكن تجربة روائية ، ولها أن تنجح أو لا تنجح، وبالطبع.. فلم أكن أتصور أن ناقدا أو مثقفا ، أو زميلا محليا سيقرأها . إنه سيعجب بتذمر ، إذ أنه لم يسبق وأن قرأ لهذا الكاتب الذي تغذى على اللغة الجاهزة والحداثة المزخرفة .. أن يكتب عملا ( روائيا ) وبهذه الصورة الواضحة .. المختلفة أبدا عما سبق .



www.ibtesamh.com/vb

كان الوقت آخر شهور الشتاء في ( القاهرة ) ، ومن عهدها بقيت لا أكتب في الأيام الباردة . وبقيت ما يزيد على الشهرين بقليل أكتب بلا انقطاع ، وتحمست بملازمة صديق وفي ( حسين حمودة ) ، لقد ساعدني بشكل نادر ، وبعد أن كتبتها لم تكن واضحة عند قراءتها .. فأعاد كتابتها بخط يده .

ثم مضى ثلاثة أعوام ، وكأنني نسيته .. كنت خلالها وبصورة لا تختلف كثيرا ، أكتب قصص ( أسفار السروري ) ، التي صدرت قبل ( الوسمية ) بأشهر .

إذا صدرت أول رواية أو قل – تجربة روائية – أكتبها... طباعة فقيرة ، وغلاف تقليدي جدا ، لقد أحاطها بالمتابعة والعناية ( حسين ) ، وأودع نسخا إلي بالبريد . بلغني بعدها أن الدار التي نشرتها – وكانت ملتزمة – لم تستطع المواصلة ، فأقفلت أبوابها .. وزعت ما لا يزيد عن ( ٦٠٠ ) نسخة فقط عن طريق مشاركتها في المعارض .

لاقت استحسانا مدهشا على الأقل ، وخالفت توقعاتي السلبية لها ، وكتب عنها بوصف أنها (الرواية ) الأولى الواقعية الملتزمة بالخصوصية والنظرة العصرية الأولى .– ليس هنا مكان سرد ردة فعل النقاد داخليا وخارجيا ، وردة فعل المثقفين والكتاب الإيجابية – يعنينا أن ذلك الحوار الطويل الذي شغلني ( سبع سنوات ) .. كانت



www.ibtesamh.com/vb

الإجابة عليه عملان : روايـــة ( الوسميـــة ) ، وقصـــص ( أســـفار السروري) . وكلاهما استطاعا أن يصلا القارئ بكل حفاوة .

لم أكن مفعما بردة الفعل تلك .. فقد كنت أتعامل معها كمـــا لو أن مغنيا أنهى مقطعا غنائيا ، وأوقف التصفيق مواصلة للغنـــاء . مضى وقت أراقب فيه ما يكتب عنهما ، ولم أنقطع عن الكتابـــة .. الكتابة في القصة القصيرة ، على أمل أن أكمل بقية عالم ( الوسميـــة ) حيث بقي مخزون ثقيل وهم شاغل .. كان ينجر معي منـــذ أنهيـــت كتابتها . وكتبت بعدها رواية ( الغيوم ومنابت الشجر ) إســـتكمالا لذات العالم في غير أفقي ، وبعيدا عن شخوص ( الوسمية ) .. ربمـــا كنت حريصا على ملازمة التعاقب الزمني الواثب أحيانا ، وطبعـــت طبعتان . وتوالت بعدها مع نفـــس العـــالم روايـــات : (الحصـــون ج- ١ - ) ( ريح الكادي ) .

عندما لا أكون واثقا وممتلئا بـــالقوة والصعـــود .. لا أكتـــب، عندمـــا أجدني قريبا وحميميا مع عالم المـــادة الكتابيـــة ، وأرى أن مناطق البدايـــة تلح على لحظتها ، ومقتنعا بأنها تستحق الكتابـــة - لحظتها - أكتب . قد أتت قبلها وحول الموضوع .. لحظـــات لا أرى أيهما تستحق الإلتفاتة فأدرك أنه لا مناخ يهيئ للكتابـــة .. إذا فـــلا أكتب .. أكتفي بتسجيل بعض النقاط المتعلقة بـــالفكرة أحيانـــا . فرغت من كتابة قصـــة طويلة ، كانت تلح علي منذ خمس سنوات،



www.ibtesamh.com/vb

فأتردد في كتابتها ، هي النواة الموضوعية لقصص ( التقارير ) التي كان يجب أن تكون في مجموعة ( الزهور تبحث عن آنية ) .. لكنني لم أجد الثقة في التعامل معها فتركتها وولدت بعد خمس سنوات ، أحسست بعدها أن هما ثقيلا زال ، لا شك أن ذلك الهم زاد ثقله بسبب التأجيل ، وعلى قدر ثقله كان الحس بالانتصار ، ولا أعني الرضى الكامل ، فالرضى يجيء نسبيا وبزمن نفسي محدود ، وأعتقد أن هذا طبيعي .. أو كما رأيت .. لأن ذلك يعني الشعور بالنقص الذي لا بد منه لمواصلة الإبداع ، ولأن استمرارية الحياة تتطلبه بميزان التعويض ..كي تصل إلى البلوغ السامي ، وبالطبع لن تصل لأن وصله يعني التوقف .. إلغاء الحياة .. توقفها حينها لا تقول شيئا، لأنه ربما كانت نهايتنا كأحياء أساسا . إذا : هنا كحياة .. هناك إبداع .

الآن ..

ما الذي دفعني للكتابة نحو منحنى آخر اسمه ( الرواية ) ؟

تفريع آخر للسؤال :

في العقدين الأخيرين / والتي ظهرت فيهما الإبداعات القصصية المحلية ، بطرح جديد ورؤى عصرية متقدمة .. لماذا لم تكتب فيها الرواية ؟ !

أقول :



www.ibtesamh.com/vb

لم أفكر عند كتابتي للرواية الأولى : ( الوسمية ) في أي سؤال من هذا القبيل ، أو غير ذلك القبيل ، ولو سئلت وقتها .. لأجبت بنفس هذه الإجابة الساذجة ، أو قل العفوية الجاهزة :

حب العالم الذي أمدني بمادة الكتابة ..الذي غدا حبا طفوليا حميميا أليفا .. حبا كما يحب الطفل حجر أمه .

فقد وجدتني بعيدا أو منفيا عن ذلك المحيط القروي آلاف الأميال .. ( القاهرة ) ، في شتاء ممض ، لقد كنت محاطا بالبرودة الطبيعية والنفسية والحنينية ، فكان الحنين القروي المشتعل في الذاكرة .. هو حمايتي الوحيدة في الإقامة الطويلة الجبرية .

لم أجد في كتابة القصة المحدودة .. مساحة لاستيعاب تفاصيل النسيج الذي يرجل بداخلي .. إنها لن تشفي ، ولن تغيث ذلك الحنين الواله .. فكتبت الرواية .

لم تكن المقومات النظرية لخوض مغامرة جديدة .. وأية مغامرة ؟ ! إنها رواية .

كل ما أملكه ذاكرتي وألفتي ومحبتي الاحتياجية الخالصة .. لقد قلت في مناسبة أولية إنها ( تجربة روائية ) .

بالطبع ..

حنيني الاحتياجي هذا ، هو ذاته الذي تربى في وعيي ورؤيتي وموقف فهمي وفكري .



www.ibtesamh.com/vb

هناك في عالم القرية ( الإنساني ) ولا أقول البريء .. وجدت الحماية والملجأ .. قلة التشوه .. الحياة النقية .. الصدق في التعامل .. بساطته .. العدالة البدائية .

الإحساس الحميم والاندفاع الوجداني الذي لا أقدر على تفاصيل فتافيته . هذه أمور حفزتني نحو مغامرة الرواية .. مغامرة تلقائية ساذجة . استمرت بعد تلك التجربة وبإلحاح .. في تناول عالمي الكتابي تباعا ، فكتبت بعدها بأعوام الرواية الثانية ( الغيوم ومنابت الشجر ) .

وقبل طباعتها حذفت منها فصلا طويلا لماذا ؟

لسبب ربما يكون غير مقنع في عين من يعلم .. لأنني لم أتعاطف معه ، لقد وجدت مفهومي الفكري يحتويه ، وينبذ حميمتي تلك .

كانت أحداثه خارج عالم ألفتي .. خارج رحم القرية مع إن شخوصه من أهل القرية .. لكنني لم أتعاطف معه .. أو أنه لم يكن يتجاوب مع سذاجتي الصادقة في الكتابة فحذفته .

وقد حدث هذا أيضا في : ( الوسمية ) إذ كان الفصل الأخير بعنوان ( أحزاب ) ينتقل ببعض الشخوص من داخل القرية إلى خارجها ، في نزاع كسر فيه الخارجون عنه دستورهم القروي، وعرفهم الاجتماعي المحدود ، فلجأوا إلى قوة دستورية أول



www.ibtesamh.com/vb

مؤشـــرات التحول التي محت تلك الدستورية الصغيرة التي كانوا قـد وضعوها لضبط عدالتهم ، وتقيم خلافاتهم دون الحاجة إلى الخارج .

إنهم لم يرفضوا ( السيارة ) التي مهدوا لها الطريق بأيديـــهم . و لم يرفضوا ( الماطور ) الذي استعانوا به في نزع الماء من البئر .. لكـــن مثل هذه المعطيات الجديدة التي رحبوا بها ، لم تكن خارج حاجـــاتهم إليها ، أما ما يكسر عرفهم الدستوري ، فلم يكونوا ليحتاجوا إليـــه كثيرا .

السؤال :

هل كان هذا في مدركي الكتابي وقتها ؟ .. بالطبع لم يكن ، لقد كان واقع القرية وغيرتي الوجدانية هي الحكم .

السؤال التفريعي الأول ..كنت أواجه به كثـــيرا ، وواجـــهتني أسئـــلة كثيرة من هذا القبيل .. تقول بعضها : ( أن الرواية لم تجـــد مادة للتشكيل الاجتماعي محليا .. فكيف تكتب الرواية ؟ ! ) .

أنا لم أجد تعليلا في هذه الإعتراضية .. لقد كان عـــالمي الـــذي تناولته ولا أزال في رواياتي .. عالما بســـحنتة واضحـــة لأن لـــه خصوصيته .

إنسانه موجود ويمارس قيمته الإنسانية وفعاليات إنتاجـــه ، دون دخول العنصرية الإنشطارية بين الرجل والمرأة .

إنه عالم ملامحه ظاهرة وقوية ، ومستوى إنتاجه واحد .. طبيعـــة كسبه المعيشي أيضا كان واحدا ، ومعروفا لدى وحدته المتكاملـــة :



www.ibtesamh.com/vb

الكل يعمل في الزراعة ، وفي تربية الماشية والرعي وانتظار ماء السماء بعد دفن البذور .



www.ibtesamh.com/vb

www.ibtesamh.com/vb

# الكتـــــابـــــة والطفولـــــــــة



www.ibtesamh.com/vb

كانت الكتابة في مفهومي ، لا تختلف عن مفهومي تجاه الريشة، أو حتى الخطوط - أية خطوط كانت - فبما أن منتجها ( فنان ) ، فكل تعبير يقوم به يمكن أن يكون فنا ، وبالطبع حدث هذا المفهوم وتشكل خلفما بدأت أؤمن بالكيان الفني ، والذات الفنية، التي أرى أن صاحبها يحمل في داخله فنانا . أما من أين أتى هذا الفنان بفنه ولماذا ومن هو ؟ فكل تلك التساؤلات كان يجيب عليها ما استقيته واستيقنته بدرجة أولىمن ( اللا منتمي ) لمؤلفه الكاتب البريطاني ( كولن ويلسون ) فاللامنتمي شخص يعيش في مجتمع يختلف عنه ، ويتميز بمميزات يراها غريبة ، وعليه فهو يرفض كل المفاهيم والإيقاع الحياتي اليومي الذي يجمعه مع الآخرين .. إنه قد خلق في عصر غير عصره ، وعليه فقدره أن يكون مخالفا لكل معتاد .

كنت أتعامل مع إبداعاتي المتعددة بهذا المفهوم ، فبعد أن كنت منذ البداية ، أحاصر إبداعي بجنس واحد فرضته على نفسي وهو الرسم والتشكيل ، بالزيت والحبر الأسود ، كنت أيضا أغازل كتابة القصة القصيرة ، وأعيد النظر في أعمال كتبتها قديما، بالطريقة التقليدية ، ومرت فترة من الوقت قاربت حدود السنة .. كتبت فيها ما سميته بالشعر ، وكان شعرا خارجا عن كل أعراف الشعر .. لقد كان يعتمد على الصورة فقط ، أو قل تشكيل بالكلمات ، لقد كان يخلو حتى من العبارة الأدبية التي لم تكن



www.ibtesamh.com/vb

تعني لي شيئا ، بقـــدر ما كان يعنيني كسر التقليد في الكتابـــــة ، دون الإدراك الكامل لمعنى التقليد ، أو التجديـــد ، أو فـــهم معـــنى مغـــايرة التقليد .. كان يهمني اللباس الفني ، ليس مهما أن يكـــون جميلا .. بل ربما رحت لأعـــاكس أن الجمـــال في الإبـــداع مـــن مسلمات الإنتاج الفني الإنساني ، ورحت أحيانا أبدع أشياء قبيحـــة أو قل لا تعترف بمقاييس الجمال الفني .

عندما كنت في قريتنا طالبا في الابتدائية ، كنت أحب الرســـم، وأؤديه بطريقة متفوقة ، ومبهرة أمام زملائي ومدرسي ، و لم أكـــن أبخل على حجارة جدران بيتنا الخارجيـــة ، أو ألـــواح الخشـــب المستوية ، والأوراق البيضاء التي تمتلئ في كراسة الرسم قبل نهاية العام بشهور .

وبقيت بعض الخطوط إلى اليوم . في مسجدنا الصغـــير لا يـــزال يحمل آيات قرآنية ، كتبت على النافذة والباب بخط جميل ، أعـــترف به الآن بعد عقدين ونصف من كتابتهما .

لقد تشوه كل شيء ، وطمست الفطرة الاقتصادية كل المعـــالم، وذهبت معها كل آثاري الفنية القليلة التي وقعتـــها داخـــل البيـــت خلـــف الأبواب ، وعلى طاولة المصابح الصغيرة ، وأشياء كنت أتمنى لو أنها بقيت لكي أراها مرة واحدة الآن فقط ، قد تبـــدو مســـألة مضحكة ونرجسية .. لكني أنظر إلى هذا بمقياس آخـــر مختلـــف .. مقياس كيـــف كنت أنظر إلى الأشياء ، وكم هو حجـــم الأمـــور



www.ibtesamh.com/vb

والمعطيات في تلك المرحلة المتقدمة الأولى ، وكيف هي الآن ، لا شك أنها أصبحت مشوهة أيضا وخالية من بكارة النظرة الطفولية بمقياس الآن .

نشرت لي قصة في صيف ذلك العام في جريدة ( اليوم ) بالدمام ، وقت إذ كانت ثمان صفحات من القطع الصغير ، وعلقها مدرس اللغة العربية في لائحة الإعلانات .

في ذات العام ، ونتيجة لتواجدي في البيت – قبل سفري إلى المدينة – كنت أقرأ كثيرا ، كل ما يقع في يدي من كتب ومجلات وصحف ، مع شحتها في القرية ، وألفت كتابا كان عنوانه ( باقة من تاريخ أدب العرب ) طبع طباعة تقليدية ، ووزع توزيعا مضحكا ، كما توزع علب الصلصة على المتاجر الصغيرة.

كانت علاقتي بالكتاب و القلم ، علاقة حميمية إلى جانب الرسم ، وكنت أجدني في ذلك السن ( الثامنة عشر ) ، شغوفا بالورق والحبر ، فمنذ أن كنت في السنين الابتدائية الأولى ، وأنا أبذل كل مقدراتي لشراء مجلة ( العربي ) ، وعثرت على كنز لا ينسى منها ، عن طريق صديق لي ، يجيء إخوانه بها وببعض الكتب من أسفارهم ، فكانوا يصففونها في خزانة من الخشب محفورة في الجدران ، ويسافرون ليعودوا في الصيف .

كنت أقيم علاقة احتيالية شقية مع صديقي ذاك ، وأرسم له الطرق والأحلام ، فيسرقها ويجيء بها لي .. لقد عشقت ( العربي )



www.ibtesamh.com/vb

عشقاً بقي معي إلى الآن ..كانت تبهرني باستطلاعاتها ومواضيعها ومعلوماتها ، ورسومها وخطوطها وفوق هذا وذاك رائحة ورقها، التي تدفعني الآن حين دخولي لأي (سوبر ماركت ) أو مكتبة لشرائها ، كي أرجع إلى ذلك الزمان .. بالرغم من تغير منهج مخاطبتها للقارئ ، واختلاف إخراجها وألوانها .. لكن أنّى لك أن تراها بعينيك ، وبعشقك القديم ؟!

* * *

إنك حين تكتب .. حين تبدع على سفينة أي جنس فني، فانك تجر خلفك قافلة طويلة محملة بكل ماضيك .. كل حياتك الماضية ، منذ المنفذ الأول الذي أطلت عبره عيناك تتلمس الحياة وإنك لا تستطيع أن تختبئ خلف كثب من الرمل ، وتترك تلك القافلة الممتدة تهيم ، بحبلها على غاربه ، ذلك أنك أنت الذي تقودها ، بماذا ؟ بوعيك . نعم ، وعيك هو الذي يوجهك نحو الوجهة التي تسير إليها . فقافلتك تلك تحمل حقائب وصوراً تمتلئ بتوقيعاتك طيلة أيامك وساعاتك ، إنها الغابة المختلطة ، وإن كل زهرة في الوجود ، وكل هدير المياه ، ودوران الأرض ونقاء السموات ..كلها اشتركت في بناء تلك اللحظة الإبداعية ، التي حططت فيها بأدواتك الفنية ، ومثلما اشترك التاريخ كله من أجل لحظة حب عارمة تموج في داخلك .. كذلك كان له – كدور متحرك فعال – دور في كونك تأكل وتشرب ، وتذهب إلى



www.ibtesamh.com/vb

الحمام، وتنام ، وتنتج إبداعا ، وتتآلف مع الآخرين ، أو ترفضهم لتحاسب ذاتك محاسبة التلميذ حين يقف أمام عصا المدرس .

ترى ..هل يمكن للمبدع أن يكون - كما يقول البعض : ذا إلهام ؟ لا أعتقد .. إنه ليس بوقا تنفخ فيه حركة الأشياء هواءاتها فيزفر ، بل إنه هو صانعها بوعيه .

جرب أنك تمسك ورقة وقلما ، وتريد أن تزاول رغبة فعل اسمه الكتابة أو الرسم ، ولكنك لا تدري ماذا تكتب أو ترسم .. ستجد أنك تحتاج إلى قاعدة اسمها الفكرة وإلا فإنك لن تفعل سوى الهراء ، بمقياس إرضاء النفس أو الصعود نحو الأسفل .

لقد جربت أن أتعامل مع أشيائي الحميمية التي تربطني بالإبداع ، أعني وسائل التعبير ، فأجدني أندفع بحماس ورغبة .. لكنني دون قاعدة ، فلا يتاح لي إلا ما يغضبني منها - من حبي لها - .

الإبداع لا يأتي إليك ، ليجالسك على فنجان القهوة ، أو الموسيقى الهادئة .. لا — إنه يأتي دون أن يستأذنك ، أو حتى يهيئ ذاته ليتوافق مع حالتك .

إنني لا أؤمن بأولئك الذين يتعاملون مع الإبداع ، كما يتعامل الجزار مع الوردة ، إذ ينظر إليها بساطوره الحاد . الإبداع كلحظات الحب ..كرغبتك وقت ظمئك الشديد في شرب كأس من الماء البارد وكحاجة الجائع الفقير للخبز .



www.ibtesamh.com/vb

قلت ، إنني حين كنت طفلاً كنت أكتسح حميميـــتي وعشـــقي لكل شيء لـــه رابطة بالقلم والورق واللون ، وكنت أتمنى لو أنـــني أملك آلة موسيقية وترية ، كالعود ، أو القيثار ، أو القانون .

لا أتحدث عن تلك العبارة التي يرددها إخواننا الذين يتـــهرطقون مع الفن ، فيعلنون بسخاء ، ودون خجل أن ( الفن في دمائهم منـــذ الصغر ) لا .. بل كنت أجدني أنجذب بعشق سري عفوي ، إلى مـــا ذكرت ، لم أكن لأهنأ بتلك المتعة اللذيذة كان جدي يأخذ من يدي أي ورقة مصورة ، أو جريدة ، بدعوى أنها ( تضيع الدراســـــة )، وأن الشطارة في قراءة المصحف ، وحفظ السور الطويلة ، وكان هذا القمع التلقائي ينطق أيضاً على أقلام الرسم ، التي لا تتوفر إلا مرة في السنة الدراسية ، بعد مطالبـــة طويلـــة .. كنـــت أجمـــع القـــرش والقرشـــين، ولمدة شهور ، وأشتري بها المجلات ، أو الكتب الـــتي أفهم من بعض منها سطراً واحداً .. لكني أقرأها وأكتـــب في آخـــر صفحاتها تاريخ إنهاء القراءة .

أما ، وإن من العيب جداً . أن يذهب هوى المـــرء في القيمـــة، وراء الموسيقى والغناء ، فقـــد كنـــت أنـــزوي في مخبـــأ بحجـــرة ( الحـــلال ) بعيداً عن العيـــون . وانهمك ساعات في صنع آلـــة وترية كا ( السمسمية) من الصفيح والأعواد ، وخيـــوط النـــايلون الـــتي تستخدمها النساء في نظم حبوب الأسورة والقلائد ، فكـــانت تعطيـــني أنغاماً ناشزة لكنها ترضيني .



www.ibtesamh.com/vb

كان جدي يحب القصص القديمة مثل ( الزير سالم ) ، و ( رأس الغول) و ( عنترة بن شداد) و (أبوزيد الهلالي ) ، ذكرت بعض هذا في روايتي الثانية : ( الغيوم ومنابت الشجر ) .. كان يدعوني في عصاري أيام شهر رمضان يالذات ، فأقرأ الكتاب من الغلاف إلى الغلاف ، ربما لمرتين إلى أن ينقضي الشهر ، وأذكر عبارته التي يكررها وقتما أتوقف قليلاً ( قال الراوي .. )

كنت أسرح في الوادي القريب ، فأجمع أنواعاً مختلفة وزاهية من الزهور الصغيرة والكبيرة ، وأقطف مجاميع مبهجة من الورد ذي الرائحة القوية ، في فصل الربيع ، حيث تكثر طيور ( السمان ) و ( القمري ) ، وتجري الينابيع في أحضان الصخور والعشب والنباتات .

أما أصدقائي جداً ، فكانوا من أولئك الذين يحبون الرسم والمجلات والأشياء النادرة ، أما الذين يجبون الكرة والمنازلات والمشاجرة ، فكنت أتجنبهم ، ربما لأنها أشياء لا تستهويني ، وربما لأنني ضعيف البنية ، وأخاف من المضاربات . لقد كنت خوافاً، أصنع المعاذير والحيل لكي أهرب مثلاً من مشاهدة أهل القرية، وقتما يجتمعون ليذبحوا ثوراً ، أو بقرة وكنت أقعد بعيداً ، أراقب



www.ibtesamh.com/vb

الحيوان ، وهو ينسلخ على جنبه مكتوف القوائم ، يجأر بقوة صوته تحت السكين .

أما الجمال ، فطريقة نحرها مكبلة اليد اليسرى أكثر إخافة وشناعة . لقد بقى معي ذلك الخوف من الجمال ، إلى اليوم ، وإلى الغد ، في أغلب أحلامي وقت النوم .

أذكر أنني كتبت قصة طويلة عن جمل ، كان يملكه أحد أهالي القرية ، هاج عليه ، حتى أدركه وقعد فوقه ، فكسر أضلعه ، وفيها ذكرت ثوراً ، سقط في بئر قريبة من البيت ، وجاء الناس لإخراجه حياً .

لم يكن جدي يعلم مقدار ذلك الجبن في داخلي .. فحرصي الشديد هو عدم إظهاره لأحد ، إذ أنه من العيب على الرجل أن يكون خائفاً أو جباناً ، أو يتعامل مع المواقف بالبكاء .

كان والدي دائم الغضب ، كلماته آمرة قليلة ، لقد كان غضب العالم وضيقه ، يستوطن وجهه ، على العكس من وجه جدي الأليف .

إنني أشعر بالخجل والمرارة ، فأقفل الباب دون ذكر مواقف عديدة .. نشأت معي إلى عهد ليس ببعيد .

كتبت ذات يوم – في السنة السادسة الابتدائية – قصة بذلت فيها كل ما يمكنني من المحاسن ، وإخفاء الخلل الاجتماعي ، عن مصير



www.ibtesamh.com/vb

حياة زوجين في بيت واحد . وحين قرأتها بعد زمان ، ضحكت بملء صدري .. لقد كانت غاية في التقليد والنصائح والدعوات .

ما أردت قوله ..

إن الكتابة ، كانت الملجأ الوحيد ، والواحة المريحة التي كنت أحط فيها ، واستخدام إمكانيات الدفاع للانتقام ، وإثبات الذات، التي لا تملك شيئاً آخر .

لم تكن تأتي من الخيال - كما تقول العبارة التقليدية - بل كانت من الواقع .. الواقع المجرب . كنت أكره أن أكتب ، أو أرسم شيئاً خيالياً ، بعيداً عن الواقع .

إذا ذلك بقي معي امتداد الحياة الكتابية والإبداعية عموماً ، وإذا كان الحلم ، شرطاً شرعياً ، يستوجبه الإبداع غالباً ، فإنه لم يكن ليخرج عن منطقية حدود الإفراز العقلي ، الذي يأبى أن يتجاوز المصداقية ، على الأقل في حدود معرفتي ومنطقية أوهامي الصغيرة .

إن أقسى الأمور على الإنسان ، أنه لا يدرك المعنى الطفولي لطفولته ، إلا بعد أن يتقدم به العمر.. بعد أن يقطع محطات متعددة من السن ، هناك حيث يلقي بحقيبة ماضيه إلى جانبه ، ويقعد على صخرة فوق جبل ، تطل على كل ما هو تحتها . وإذا كنا نؤمن بأن الطبيعة مقننة ، ومرتبة بإيقاع موسيقي زمني ومكاني ، يتكون من نقاط وفواصل ملونة ، يكمل بعضها بعضاً ، ويلغي بعضها بعضاً..



www.ibtesamh.com/vb

فإن القانون ينصهر في بوتقة العمر ، ويؤقلم مراحله .. تلك المراحل التي تتطور ، وتحول كميتها إلى كيفية متجادلة ، متصارعة ومتضادة ، ومعجونة بالتجربة ، وبالتالي بالاختزان .. اختزان المهمة ( الرحيقية ) المختزلة ، التي هي في آخر المطاف المنهج المتجدد القائم على ترياق الضريبة الحياتية للإنسان . فالطفولة .. ذلك الكم المحصور بين الأصابع الطرية ، لا يلبث بعد زمن ، أن يغدو – مهما كان مرا – كقطعة السكر الذائبة في الماء .. ماء السنين الذي يكون العمر الممتد للإنسان .

لقد كان الفنان دائما يتجادل مع طفل شقي في داخله، ويخاطبه مخاطبة الأب ، فيداعبه مرة ويهزه من أذنه مرة ، لكنه يريده أن يكون في صورة مرضية ومطمئنة .

أما إذا نام ، فإنه يفقد عذريته الإبداعية الصافية . عليه أن يجعله يطل برأسه من نافذة التجربة والمفهوم .. نافذته هو كإنسان كبير.. أو ( كطفل كبير ) .

كان ( رامبو ) يقول إنه عندما يكون طفلا فإنه يبدع ، وعندما لا يكون كذلك .. فإنه يجد نفسه خائبا ومفلسا .

لست – هنا – في طور المتحدث عن الدهشة الطفولية ، التي ترى العالم بعين واحدة فقط ، لكنني أيضا لا أقول إن على الفنان أن يكون تلكِ العين التي ترى ما لا يراه إلا هو .



www.ibtesamh.com/vb

إنه في هذه الحال ، يحتاج إلى عالم مختلف .. بل كوكب مختلف . ما أريد إيضاحه هو أن ذلك الطفل الحي في صدر المبدع ، لا يريد أن يخرج ، لأنه لو فعل – وربما لا يستطيع أبداً – سوف يموت الإبداع ، أو يتحول إلى شيء آخر ، لا يمكننا أن نسميه إبداعاً .

العين التي ترصد الأشياء في المرحلة الطفولية .. هي تلك العين التي تقتضي حركة الأشياء بصفاء وعذوبة ، وهذا ما يحتاجه الفنان دوماً، لذلك يضيق به كل الورق ، وكل الأقلام ، فيذهب ( يشخبط ) على الجدران .



www.ibtesamh.com/vb

# الكتـــــابة و القريـــــــــــة



www.ibtesamh.com/vb

أواجه غالباً بهذا السؤال : " إلى أي مدى أثرت القرية في كتاباتك " .

إن من الصفعات التي تفاجئك دون ذنب تصنعه ، هو أن يقابلك من يزعم أنه يقرأ ، أو قرأ ما كتبته من إبداع ، وإذا به يحاورك دون أن يظهر عليه ذلك .

نعم .. من المحزن جداً ، أن يحدث هذا ، ومن المرثي أن يكون بعض هؤلاء ، ممن تعتبرهم زملاء .

منذ أن تعلمت الذي ( عجنني وخبزني ) في كل دهاليز الحياة، الحياة المرتبطة بوسيلة إنتاجها ، بأدوات الزراعة ، المأكل والملبس، وشعائر العبادة ، وحرفيات المعيشة بكامل تفاصيلها .

القرية لا تزال بنفسها الساري في الذاكرة ، وقسمات وجوه أهلها ، فرداً فرداً ، كل رجل ، وكل امرأة ، وكل عجوز، وطفل.. لازال يحتل موقعاً حميمياً في خاطري ، بعض أولئك قضى نحبه، وبعضهم باقي ، لكنه يعيش حياة الاستهلاك والمضاضة . قل إنه ينتظر يومه الأخير . لقد وجد أنه يعيش ، ليأكل ويشرب ، ويؤدي فروض الله عليه ، أما باقي الحياة التي خلق ليؤديها برضى وفاعلية.. فقد خسرها . نفرت من بين عينيه ، كما تنفر النار بالبارود . يقعد في البيت المبني بالأسمنت ، والمضاء بالكهرباء ، أمام صندوق بلاستيكي يثبت صوراً ملونة اسمه ( التلفزيون ) .



www.ibtesamh.com/vb

لقد هجر المذياع الثقيل ، حين كان بريده الآلي دائما من العالم الخارجي . لم يعد للأشياء نكهتها وطعمها الأول . باع الحمارة والبقرة والثور ، وكل ما كان يعتمد عليه من الحلال ، ولم يعد في الساحة صوت ديك واحد .

إنه يزفر زفيرا لا يفهمه إلا من عاش معه تلك الحياة . حياة القروي المزارع ، الذي لا يجد اللذة إلا فيما يزرع ويحصد ، وينتج من ثمرة زرعه كل متطلبات حياته .

إنك لا تستطيع أن تستبدل بعنقود العنب الطبيعي ، عنقودا من البلاستيك ، إلا إذا كنت ترغب في الزينة .. هذا ما يعيشه القروي في الجنوب الآن . عندما كنت أعيش في القرية .. كنت أتعلم البناء بالحجر ، وأحب جهدي كالآخرين في أعمال الزراعة دون كلل، آكل نصف حاجتي ، وأشرب من أقرب بئر أو ينبوع ، و أقطف خطواتي في الجبال والممرات البعيدة ، وأتنفس الهواء المندى بالحبق والعرعر والسنوت ، إلى أن كان عمري يشارف على التاسعة عشر ، وأنا لم أسافر .

عندما انصهرت الصلابة الجبلية في البناء .. بناء الغابة و الحياة المشتبكة .. كان من الصعب محوها أبدا . لقد بقيت كالنحت في الحجر .. إنك ترى العالم ، وتقيسه من زوايا التقاطك ، من تلك المنطقة التي تشكل منها مفهومك الصخري والإنساني فيما بعد .



www.ibtesamh.com/vb

إن القرية ليست كما يرى البعض ، جماعة قليلة من الناس، يسكنون بيوتاً معدودة ، ويعملون في الزراعة . لا .. إنها تلك القيم الإنسانية الودودة ، الصادقة الأليفة الطيبة ، والقاسية في ذات الأمر .

إنهم أولئك الذين لا توجد بينهم رقبة تعلو على الآخرين ، ومن هنا كانوا بحس واحد ، ويد واحدة ،كلهم يركبون الحمير ، ويحلبون البقر ، ويأكلون الحنطة والشعير والعدس . وعندما تذبح بقرة أو يذبح ثور ، فإنهم جميعاً يشاركون في ذبحه ، وجميعاً يأخذون نصيبهم بالتساوي .. يسمونها ( شرِكه ) ويسمّون حصة اللحم التي تجمع من كل قطعة في الذبيحة ( سادي ) .

تلك الوجوه المعمرة بحب الحياة ، والشقاء ، والمحبة الإنسانية الآمنة.. كانوا يحسبون الليالي والنهار ، ونجوم الأسابيع والشهور .

قال لي أحد كبار السن ، إنهم يعرفون أوقات بذر الحبوب، و أيام المطر والسقاية . بل وكميتها .. ففي يوم مر به فلان ، و هو يبذر الذرة ، فقال له ناصحاً : لو أنك بذرت بعد زوال الشمس من وسط السماء ، لكان أفضل .

قال : أطلقت ثوري ، وحملت محراثي إلى البيت ، بعد أن بذرت نصف الأرض ، وعدت وقت العصر ، لأبذر النصف الآخر، وعندما أثمرت الذرة ..كان النصف الأول ، ( مدّود ) يعني فاسداً ، وجاء النصف الثاني سالماً مستوياً.



www.ibtesamh.com/vb

إنهم لا يعرفون مراصد الأبراج ، ولا تقاويم .. لكنهم يعرفون كيف يقيمون المودة مع الأرض .

كانوا يتقاتلون مع القرى المجاورة والقبائل ، من أجل ذراع أو ذراعين على الحدود ، ويتخاصمون فيما بينهم من أجل شبر أو قدم ، تفصل بين مزارعهم ، فيقيمون المجالس ، ويدينون المعتدي، و يكتبون الصكوك .

كان جدي يحضر محفظة كالعلبة من سعف النخل المجدول، تفوح منها رائحة ( البعيثران ) القاتل للعثة والآفات ، لأقرأ الحجج والصكوك القديمة ، التي مضى على بعضها أكثر من ثلاثمائة عام .

إنها تكشف عن دستورهم الوفي ، الذي يحكمونه في خلافاتهم .

في القرية مراسيم للفرح ، والرقص ، والميت ، وذي الكارثة، والقضية التي تعم ، وكل أمر يعني الجميع .

إنني لا أريد أن أتحدث عن التفاصيل ، ولا عن الدوافع و المبررات التي يبحث عنا مثل طارح السؤال .

تلك أمور يجدها القارئ في كتاباتي .. الروائية منها والقصصية .

الكتابة عن هذا العالم الخاص ، وبخصوصية فرضها إيقاع المعيش، ليست سهلة ، فهي معتمدة على التصور المطلق .. إنها تحتاج إلى الصدق الكامل والمدعم بالتجربة ، أعني تجربة المعيشة اليومية،



www.ibtesamh.com/vb

المحتوية على الفتافيت ، تلك التجربة التي تتلقاها ببديهيتها وحقيقتها .

( الكتابة عن القرية ) عبارة تقليدية مضحكة – بالنسبة لي على الأقل – ذلك أنها تعني لي ، أن القرية كالمناسبة ، أو كالحادثة التي تستقطب ذهن الكاتب ذات حالة ، فيذهب يرشق عليها قلمه .

إن المسألة ليست بهذا الوضع . إنها تعني بالضبط الكتابة بدمي.. دم الحياة القروية .. دم المعيشة اليومية –لا أعني اللغة الكتابية — بدم حياة أناسها وقيمهم وهمومهم وتطلعاتهم، وانتظارهم للمواسم ، وحرصهم على تربية زرعهم ، ومواشيهم، وأشجارهم ونباتات جبالهم ووديانهم .

المسألة .. مسألة كيف يتعايش ذلك الإنسان ، ويقيم الولائم الاحتفالية بقلبه ونبضه مع فرحة حصاده ، وبذور المطر المبهج . مع علاقاته بالصخر والتراب والهواء والشمس الآخرين ، وكل شيء يتآلف معه ، أو يرفضه .

إنها تعني باختصار : المخزون التاريخي العميق ، أو من الشمال، أو من الشرق ، أو لأنني من ذلك المكان القبلي ، أماشي لغتهم، لا .

وليس لأنهم الآدميون اللذين لم يخلق مثلهم في العباد ..هم مثلما يحملون القيم والترعات الإنسانية ، التي تكون مقاماً من مقامات



www.ibtesamh.com/vb

الدوافع الكتابية ، فهم أيضاً مسكونون بالتشـــوهات ، والأخطـــاء و لست مطالباً بتسديد ( فاتورة ) مفصلة باستهلاكي الكتابي ، الذي يستمد طاقته من أولئك البشر . انه عـــالمي .. كيـــاني .. دمـــائي، تفاصيل همس نسغي في شجرة الكتابة والإبداع . لذلـــك فـــالأمر، ليس اختيارياً وليس انتخاباً مزاجياً ، ولا فرضاً .

* * *

إن الإبداع في طاقته الإنسانية المتقدمة ، والمشرئبة إلى عالم أجمـــل وأرحب ، وأكثر صفاءً وسعادة وحرية ، مسئول مسئولية تاريخيـــة وثيقية .. تحاسبه عليها كل تتبعات الحاضرين والآتين ، وقبل ذلـــك تحاسبه أمانته ، وضميره الذي يبذل قوتـــه لكشـــف التشـــوهات.. لكنـــه بهذا الكشف ، هو يسعى للإصلاح .

الكاتب ليس مصلحاً اجتماعياً ، أو مربيـــاً ، أو سياســـياً ، أو مجسداً لمشاعر الحب والكراهية . . أو .. أو .. إنه كـــل هذا وغـــير هذا . هو المؤتمن بموهبته ، أن يقول شيئاً إنســـانياً جميـــلاً ومفيـــداً ومسؤولاً .

هناك من يقول إن عليه أن يبدع فقط ، وليس من حق الآخريـــن محاسبته على ما ينتج .

أرى أن هذا غير صحيح . فمعنى ذلك باختصار شـــديد .. أنـــه مبدع ذو رؤية ( مُلهمَ ) ووصف كما قلت .

نعم ..



www.ibtesamh.com/vb

ولكن أين أنت ؟ وأين الفكر الذي يسير إبداعك ، ومن هم ( الآخرون ) الذين انتجوك في الأساس ؟

الإبداع له قوانينه ، وله قضاته ، وله قاعدته الجماهيرية ، التي ترفعه أو تسقطه .

لا أستطيع أن أكتب عملاً كتابياً ، وأسميه بجنس أدبي .. كأن أقول هذا قصة ، لمجرد أنني أرغب في أن يكون قصة ، بينما لا صلة له بالقصة .

* * *

أهل القرية عندما يقابل أحدهم الآخر ، فهو يصف له الحال والمال، ويذكر له انتظاره للمطر ، وكل شيء يعانيه في إطار الهم الجماعي ، الذي يعيشه الآخرون ، بالطبع فالأذن المستمعة لذلك هي القاعدة .. تسمع أشياء ليست ببعيدة عنه ، بل أغلبها ، لكنه من العيب على المتحدث القادم ، أو الضيف .. أن يبدأ بطرح قصده ومراده ، من مقابلته تلك ، دون أن يمهد لها . لقد تعلمت من اللسان فن القصة والحكاية ، فبيتنا – يقع على طريق الذاهب والقادم من مركز سوق القرى والحكومة – ، لا يكاد يخلو من الضيف .

كان جدي يحب الضيف ، حباً لم أر مثله فيما بعد ، إذا لم يزرنا أحد في الأمسيات ..كما يقعد وأذنه إلى الراديو الكبير ، ببطاريته الثقيلة ، حزيناً وصامتاً ، فيحسب لتلك القعدة الانعزالية حساباً،



www.ibtesamh.com/vb

منذ غروب صفرة الشمس إلى الاحمرار .. ليبعثني إلى فلان ، أو فلان من الناس .

مراراً كان يقتطع من عشاء أهله ، ويطعمه للضيف ، يستضيف أناساً لا يعرفهم ، ولا يأمل في مقابلتهم أبداً ، فيطعمهم ويهيئ لهم مناماً طيباً ، ويقطع معهم وقتاً في الحكي والسوالف . وبالطبع فذلك الضيف ، يكون معه مركوب والمركوب يحظى بالعناية مع الحلال .

إنك لا تستطيع أن تسمي ذلك مخلصاً من الإحساس بالعزلة، أو الوحدة ، ولذا فهو يحتاج إلى من يحادثه .. لا ، فلربما كان هذا افتراضاً قشورياً ، ذلك أن يومه منذ الفجر الأول ، إلى المغرب .. لم يكن فيه ثغرة حتى يجد كيانه فارغاً وحيداً ، والبيت ممتلئ بالحياة والحركة ، ومع ذلك فلم يكن المذياع بقادر احتلال مكان الإنسان . إن الإحساس العالي التلقائي بالآخرين .. يبقى وادياً نضراً في ضرورة الحياة القروية ، وبالتالي فمن البديهي لأن يكون الجميع كبناء الجسم الواحد .. كبناء مدماك الحجر ، الذي تمسك فيه القطعة الأخرى .

* * *

ينظر البعض إلى أن الكتابة عن إطار اجتماعي واحد ، وضمن حدود جغرافية واحدة .. يعني أنها إقليمية مشوفنة .



www.ibtesamh.com/vb

إن هذا المفهوم البورجوازي ، والمستقى من الفكر الانفصالي الاستهلاكي هو ذاته الذي يرى الرقصة الشعبية حركة تقافزية متخلفة ، وأنه لا بديل لها ، إلا مسايرة إيقاع العصر باستبدالها برقصات أخرى ، يزاولها العالم ، العصري في مراقص ( العلب الليلية ) القائم على خلط الهويات ومزجها بالنزوات المتشنجة .

نعم ..

لقد رأينا هذا المفهوم التجاري ، يصنع ويصمم على الدوام ، كل ما نحتاجه مما يتعلق بلمستنا الخاصة في استهلاك حياتنا اليومية، وذلك لا يعني تشجيعا وحبا في تأكيد خصوصيتنا وانتماءاتنا .. لا فعندما يكون للرقصة في جنوب أفريقيا – مثلا تصميم خاص فردانيا ، فهذا ليس دعوة على بطاقة مذهبة ، للدخول في ( البورتبول المكيف ) تحت الإضاءات الملونة ، وليس حبا في التأصيل إنه دعوة مزخرفة للخروج وعدم العودة إلى الجذر الإنساني الاجتماعي المتميز.. دعوة نحو نبذ الماضي .. لكيلا يبقى هناك حاضر للإنسان اليوم، هو المفهوم ذاته ، الذي يقيم للوحة التي تظهر ( الدلة ) وبيت الشعر ، والأرابسك وزنا في قيمة الفن ومضمون إبداعه ، بهذا المفهوم البورجوازي الشكلي ، الذي ينظر إلى وجودها كزخرفة وإضافة جمالية ، دون النظر إلى دلالتها .. لقد أصبحت عند أولئك كالواجهة .. الواجهة الذوقية الجوفاء .



www.ibtesamh.com/vb

يكتب بعض النقاد ، أنني استخدم اللغة الشعبية في قصصي ورواياتي ، ويقولون إن هذا دعوة لما سموه بالخروج عن اللغة الفصحى ، وقال البعض ، إنه دعوة للتأصيل الإقليمي .

هذه النظرة القاصرة تعني أنهم لا يعنون بخصوصية الأصالة . لقد رأيت كذلك ، أنهم لا يقيمون معرفة بالفواصل والأقواس والنقاط وخلافه .. لقد اعتادوا على وفرة هذه الضروريات في الكتابات، التي تدخل في سكة الحداثة العريضة ، فأصبحت تتساوى لدى حاسبتهم في الأشياء .

إن وجود العبارة الشعبية في سباق الترابط المنطقي للجمل ، يعني بالضرورة .. ضرورة استخدامه وإبرازه ، بدلالاته .. دلالة تلك اللغة الأكيدة .

إنك لا تستطيع إقالة تلك اللغة ، وفرض دلالية من جيبك ، لأن اللغة الاجتماعية الخاصة – هي ذاتها عالمهم وتاريخهم وكيانهم .. فهل تأتي لتمسح كل هذا ، لمجرد أنك تريد أن ترضي الآخرين ، ليقولوا إنه يحافظ على اللغة الفصحى .. ويسعى نحو الوحدة القومية عن طريق الفصحى ؟ ! لا .. ولو كنت كذلك ، فإنك لن تكتب شيئاً متميزاً لأناس متميزين – اعني لهم خصوصية المكان والإنتاج – والعلاقة والتعبير .

هناك كلمات شعبية ، تجعلك تحتار في إبدالها ، ليس لدلالتها فقط ، وإنما لفصاحتها وعمقها .. سأذكر مثلاً : ( يلمح من



www.ibtesamh.com/vb

وسط رأسه ) كم تحتاج من الكلمات المتراصة لكي تقول ، إن فلانا ينظر إلى الشيء بدهشة إلى درجة أن عينيه المفتوحتين عن آخرهما ، بلغت وسط رأسه . أنظر – مثلا – إلى قولهم : ( يقطع من القمر قميص ) ويعنون به أنه يأخذك معه في أحلام ، وأحاديث خيالية بعيدة . قولهم : " بعد راعده في البحر ".. لا يزال الماء الذي يأتي من بخار الماء من البحر ، ويتحول سحابا تسوقه الرياح ، ثم يجيء مطرا .. ماء يشرب ، بعيدا ربما يأتي وربما لا يأتي .

لست – هنا – معددا الأمثال والحكم والأقوال ، إنما أوضح كيف أن اللغة .. أية لغة يصوغها مجتمع ما .. هي كالكائن الحي .. تتطور وتتفاعل لما يراد منها ، وبالتالي فأولئك القوم .. نحتوا لغتهم بمقدار حاجتهم لها ، وبمقدار استخدامهم ، ومن هنا فإنها صنعتهم جميعا .. ليست من صنع عالم لغة ، أو فقيه في النحو والصرف.

إنها لغة الحاجة والدلالة والمعرفة .. لغة ثقافة الحياة والمعطيات اليومية المرتبطة بمعيشتهم .

الكاتب الذي يحرص على أن يكون أرشيفا للمعلومات، وجعبة للثقافات الجاهزة .. دون أن يلحمها بذاته وناسه ووطنه ،يبقى كمركز معلومات صغير متحرك .. إنه لن يعطي شيئا مهما .. يظل كالمذكرة وكالجهاز .. بالطبع أتحدث هنا في إطار الموضوع، وليس بالقياس التفصيلي لمعايير الأشياء العلمية .



www.ibtesamh.com/vb

لقد حاولت أن أكون بما أكون من معطيات ثقافية على كل المستويات .. حريصا بقدر طاقتي الثقافية والإبداعية ، لكي أكشف ذلك العالم ، وأبحث عن مناقبه الإنسانية ، وأوثق لأشياء اندثرت، وأشياء تكاد تندثر .

في إطار إيقاع واقع العصر ، ورؤيته الحضارية الإنسانية من هنا وجدتني أغرق في تفاصيل تلك الحياة و أجدني أحتاج إلى سفر طويل وبعيد الزمن ، لكي أستطيع أن أقول بعضا مما يحمله داخلي من أشياء .

عندما كتب ( كازنتزاكي ) كتابه : " تقرير إلى غريكو " .. كان يقول – وهو في أيامه النهائية – أنه يحتاج إلى عشر من السنين ، لكي يقول ما يريده أعتقد أنه لو قضى ما أراده من الزمن، ليؤدي شغفه الكتابي لكشف ما يريد قوله لما كانت كافية ، وذلك لسبب بسيط ، وربما كان بديهيا ، فالحياة مربوطة في قانونها بالحركة .. تلك الحركة التي لا يمكن أن يكون لها حدود والتي يعنيني فيها – هنا – الحس المتجدد ، ذلك المحرك الأساسي الجبار ، الذي يقوى ويتجدد كلما تقدم الزمن ، والذي يزداد معرفة وثقة وعنفوانا بمدارك الأشياء .

ألم أقل ؟



www.ibtesamh.com/vb

إن من المرثي حقا في هذا القانون الطبيعي ، أن الإنسان عندما تزداد مداركه معرفة وقربا من الأشياء .. يكون قد أخذ شوطا بعيدا من العد التنازلي في عمره .

لا عزاء في هذا ، إلا بشيء واحد هو ، توظيف حس المبدع العالي بالآخرين ، وربطه بقضاياهم ، وهموم معاناتهم ، وأحلامهم المستقبلية الجميلة . ربما كان من المخيب فعلا ، إن النتاج الإبداعي، لا يلقى له مسكنا في واقع حياة المبدع ، هذا إذا لم يدر عليه الشقاء .. لكن هذا لن يجعله مهزوما .. وذلك أنه لا ينتج لنفسه ، ولا يبني لذاته الملتحفة بفناء الأشياء ، و إن الكلمة التي تسعى نحو الكشف عن الحقيقة ، والمحاولة لتثبيتها .. تبقى شهادة تاريخية .. للإنسان القادم بعد الحاضر .

كتب " كازنتزاكي " : " زوربا " ، وكتب – أخيرا – : ( تقرير إلى غريكو ) ، وكان لا يلتفت إلى هذا الرصيد ، بل يرد بصره نحو الأفق بحثا عن شمس جديدة ، يستضيء بها لتدفئ أشياء مخبأة في داخله .

لقد عاد إلى جزيرته ( كريت ) عاد طفلا شقيا فقيرا إلى حضن قريته .. مسكنه ومحطته الأولى .

إنك لتجد في هذا العملاق،الذي جاب كثيرا من بقاع الكون، ولطخ جلده المحمر بلفحة صحراء سيناء ،وعتامات الكنائس الغريبة، والمقاهي الرصيفية، وتحاور مع خضرة البحر، وصلابة



www.ibtesamh.com/vb

الصخور ، وعذوبة النغم ، و..و.. امتلأ بالحياة ، و لم يمتلئ ، لم يقف على حد العلوم .. عاد إلى قريته المنسية الأولى ، تلك التي ألقت خطوط بصماته .

أليست هذه البصمة التي لم يكن في حاجة إليها .. هي كل شيء ؟

إننا لا يمكننا أن نقف كالوقفة "المليرية" " وقفة آثر ميلر " فوق ناطحات السحاب في واشنطن ، ونبصق على " المكارثية " بحجة أن العالم مجنون ، ولا نستطيع بهذا أن نحول مالا يعجبنا إلى مباول – كما يقولون – لأننا لن نقدر على طمس التشوهات في نظري ، ربما أرضى دواخلنا وربما لمعنا الصدأ المتراكم في صدورنا .. لكننا لن نقدر على إزالته .. ذلك يعني إزالة الحياة .

فالفنان عليه أن يدرك ، أن أهم وظائفه عدم الاستسلام للتشوه، وعدم الإيمان بالعجز في عدم الجدوى ، عليه أن يقول ويمضي .. عليه أن يشير بسبابته إلى المناطق المجدورة التي تؤذي استقامته ليمضي .

أريد أن أقول شيئا مهما : عندما يجد الفنان حاجة إلى أن يكاشفه الآخرون .. فعليه أن يدرك أنه لا حاجة لهم به . إذا كان ينتج من أجل مكافأتهم .. فهو سيغدو متصنعا ، أو قل ، قالبا . من هنا سيضع قدمه في التقليد ..الذي يبقى أسيرا لمطالبه التي لا



www.ibtesamh.com/vb

تختلف عن مطالب الآخرين وطموحاتهم المحدودة برفاهية العيش والهم المكـــرر ، الذي يصب في نهر الذات .

* * *

في القرية كنا جميعا الصغير والكبير ، نأكل مـــن صحـــن واحـــد، ونشرب من طاســـة واحـــدة ، لا نعـــرف الأطبـــاق والكـــؤوس و الطـــاولات .. كـــانت معيشـــتنا مختلطـــة بـــالحلال والنبـــات والدواجن..كل شيء لـــه طعم الحياة .. الحياة التي لا تفســـير لهـــا غـــير الحركـــة ، البحث عن ثمرات العمل اليومي .

ينقضي فصل ، ويباغتنا آخر ،فنجعل لكل يوم حسابا ، ولكـــل أزمة توقعا ، لم نكن ننتظر تصاريح الصحف ، وأنباء الإعلام .

لقد كانت حياة يفتقد فيها الغائب ، وإذا كان أحدنا لم يحضـــر صحن الطعام الوحيد الذي يجمع الكل .. يفرز له حساب ربما كـــان يقتطع من حصة الآخرين الحاضرين .. إنه قانون لم يشـــرع علـــى الورق ، و لم يدرس على أيدي مدرسي سلوكيات الموائد .

الجميع في القرية ، يقفون على القريب الذي يجيء برأس عاليـــة عليهم ، فيسقطون تميزه ، ولا يجد له حليفا .



www.ibtesamh.com/vb

تلك المعاملات وغيرها .. ليست بقاصرة على أولئك القـــوم .. إنها تتشابه في مواضع متقاربة ، وتتشابه في أخرى متباعدة ..لكـــن البصمة المختصة بالمخزون الاجتماعي التاريخي الطويل ، تبقـــى ذات خطوط تقول ، هذا العالم له هذه السحنة .. السحنة المتميزة بتقليدها وعقيدتها وصفة علاقاتها بطبيعتها وأدوات حياتها .

في القرية ،كانوا لا يخشون اللومة في ذكر الحق ، وأمام الجميـــع . في ساحة المسجد مسجد الجمعة ، كـــانوا بعـــد الخطبـــة المعتـــادة والصـــلاة يقعدون وقتا ، يسلمون على بعضهم ، ويقبلـــون فلانـــا القادم من السفر ، ثم يطرحون قضيتهم ، ويتشاورون .. يتجـلورون، يقررون بصوت واحد ، ويسمعون قول المعترض ، فيـــأخذون بـــه أحيانا ، أو يرفضون .

لم يكن هناك مجلس برلماني بدفاتر ضبـــــط ، ولا نيابيـــة ، ولا مضخمات صوت ..كان هنا دستور عرفي مقنن معلـــوم وضعـــوه بمعرفتهم وحاجاتهم وظروفهم .

الكل يقول للمعتدي .. أنت تهضم حـــق الضعيـــف . وتنبـــذ الآخرين .

إن من أعمدة التماســـك الاجتمـــاعي في أولئـــك القـــوم .. تشـــابههم.. إن لم يكن تطابقهم في مستوى المعيشة .. ممـــا رفـــع المستوى التعايشي.



www.ibtesamh.com/vb

الكل يحتاج للآخر ، والآخر لا يستطيع أن يحيا دون حماية الآخرين .. تلك الحماية الإنسانية المتكافلة الآمنة ، وليست حماية الحد والعصا ، تلك التي لا مناص عنها أمام يد الغريب ، بل الحماية التكافلية المباشرة . لم يكن للفقير واليتيم والأرملة والضعيف ، ولكل المواطئ الهابطة عن نظرة المستوى الاجتماعي التقليدي .. لم يكن لهؤلاء حق ناقص قياسا بالآخرين .

كانت المرأة تقعد في مجلس القوم ، وتعرض أمرها مع الآخرين الذين يريدون النيل من حقها الزراعي أو غيره ..فيقومون كلهم بوضع الحق عليه ، وأخذ ما اقتطعه ، و لم يهزمهم ، أو يصادر دستورهم ورأيهم ، إلا أيد من خارج المحيط المحدد بأعرافهم .

إنني لا أستطيع أن أكون دارسا انثر بيولوجيا ، ومحللا اجتماعيا ، لكي أفند فتافيت الحياة القروية المتلازمة .. ربما كنت أقول قولي بحلولي الكتابية ، في إطار الأعمال الإبداعية القصصية والروائية .

لقد جعلني ذلك السؤال التقليدي الذي جاء في أول الفصل .. أندفع إلى الكشف عن بعض تفاصيل الإبداع الكتابي المرتبط بعالم القرية ، وبعالمي الطفولي الذي يقودني بألفته وبحميمة الكتابة عنه..بدءا من بيت النشأة وبتفاصيله الحياتية وبتآلف وحدتها في السعادة وفي الضجر .



www.ibtesamh.com/vb

ولعلي تطرقت وبصفة مركزة حول كلمة ( الحميمية ) ، التي لا أجدني أبدأ – وربما كان هذا عيبا – أكتب دون أن تكون أحد مكونات دوافع الكتابة الأساسية ، في كل فتافيت كتابتي .

لقد جربت أن أحاول الكتابة عن أشياء لا تربطني بها ، حميمية أو تعاطف ما .. فخرجت فاشلا..أو قل غير راض .

وبالطبع أعني الرضى الكامل ، أو شبه المقنع بمسرته الصغيرة .. التي تدفع نحو إبداع مستمر ، وإنما أعني اللذة النصوصية المعمرة بجوهر الفعل الحقيقي للموضوع الكتابي .

إننا حين نكتب عن أشيائنا الصغيرة في حياتنا .. نحس بالخجل نحوها ، وأحيانا بعدم الاستحقاق ، وبالنقصان في أحايين أخرى ، مما يبطل مفعول القيمة الاستمرارية في إكمال بعض كتاباتنا .

لا أريد أن أبين مدى اللب الكتابي الذاتي ، الذي نكتب من أجله.. فتلك مسألة لم أقصدها ، فالكتابة بهذا المنظور الذي يجعل من الكتابة في إطار الهم الخاص . تبقى بعيدة عن افتراضية التحام القارئ بالمعطي الكتابي ، وهنا تفقد الكتابة فاعليتها الحقيقية في مخاطبة وجدان القارئ .

ما عنيته بالذات .. تلك المنطقة الرحبة والمحصورة في آن ، بين التعبير عن ظواهر الأشياء أنستها.. فحين نكتب عن حفرة جدار البيت الذي عشنا فيه مثلا .. فإننا لا نكتب عنه – وهو يشدنا بحميميته – من أجل تعبئة الهيكل الكتابي بالتفاصيل ..بل لأنه يعني



www.ibtesamh.com/vb

شيئا مهما في ذاكرتنا ..هنا نحن نكتب عن علاقتنا الإنسانية بـــه .. العلاقة البالغة الألفة .

وقد يبدو للآخر الخارج عن دافعنا هذا .. أنها غير مهمـــة ، و لم أفكر كثيرا فيما إذا كانت ستهم القارئ الـــذي يمـــر بهـــا مـــرور الكـــرام.. لأنني لا أفترض فيه ذلك ، ومن جهة لأنني أكتب عنـــها بأمانة حسي وتجاوبي الكبير مع فعلها الحميمي في داخلي .

وبهكذا تآلف تكون الكتابة أكبر رحابة على مستوى التفصيـــل الاجتماعي القروي ، و لم أعـــن بـــالمنظور النفســـي أو التحليلـــي الأنثروبولوجي .. إنني أكتب بأمانة ترضيني أنا فقـــط ، وبصدقـــي المترعرع في حميميتي وألفتي مع ناسي وأشياء تفصيلية أخرى .

قد يكون هذا عيبا .. لا أدري ، وإذا كـــان عيبـــا في كتابـــاتي الإبداعية ، فإنني راض عنه ، لأنه يمثل مقدرتي وأمـــانتي الكتابيـــة بألفتها التي تحميني بدوافعها ومسرة التعبير عنها .

إننا لا نستطيع أن نحمل أنفسنا الإثم في مناطق لم نـــرض عنـــها الآن.. مرت في حياتنا الماضية ، بقدر ما نعتبر بها ، ونتجنب أن نقـــع في مثلها ..ربما بمقياس استهزائي ، أو استهتاري ، وربمـــا بـــإدراك تطور عبر مراحل نظرتنا التجريبية والثقافية للحياة .

على هذا .. فإننا ندخل ذواتنا في شخوص أعمالنا ، وفي فـــهمنا الذي وضعناه في كتاباتنا ، التي تختلف في أحدنا عن الآخر .. إنهـــا



www.ibtesamh.com/vb

مسألة تميز طبيعية ، لا تحتاج إلى الاستعارات ، وتظهر بمقدار صدقنا مع إبداعاتنا .

لم آخذ في يوم ما بما يكتبه المنظرون عن قوانين التعامل مع الموروث الشعبي والقروي بالتحديد .. بقدر ما كنت أتعامل بتجاوبي الوجداني مع عالمي الكتابي .

صحيح أن الكاتب لا يستطيع أن يكون محايدا في كتابته ، لكنه إذا ما انصاع وراء القوالب الفكرية الجاهزة .. فإنه سيفقد لذته مع النص الذي يخلقه ، والمهم : سيفقد تجاوبه الوجداني ورحابة التعبير الأمين .

وبالطبع فالتنظير في مثل هذا الأمر لا يحتاج إلى الاستشارة .. لأن الحيادية ومفهوم المنهجية .. سيأخذان طريقهما بصورة تلقائية .

فالإبداع لا يأتي خارج اللاوعي في أساسه ، وهذا كاف لئلا يشغل خواطره بهذا الشأن الشاغل – في رأيي على الأقل – .

عندما كتبت روايتي الثانية ( الغيوم ومنابت الشجر ) ..كانت بالتحديد تعني منطقة الطفولة ، ونشأة الصبا الأولى ، ولكن هناك تفاصيل دقيقة ، وربما فيها شيء من السردية ..لكني لم أستطع تجاوزها ، وفي ذات الوقت كانت – أي تلك التفاصيل – مختصرة، والسبب أنها كتبت بمقياس نظرتي الكبيرة وقتها .. نظرة الرجل



www.ibtesamh.com/vb

وبداخله الطفل الذي يحن بصورة جنونية نحو الماضي ، نـــابذا عنـــه الوصايا والمحاذير والتنظيرات .

أرى أن الكتابة المعيارية ..هي كتابة تحاصر الصـــدق الوجـــداني .. تلك التي تغتال الحس الأمين الساذج في وجدان الكاتب .. فإذا مـــا كانت كتابته تحوم في إطار إرضاء الآخرين ونيـــل التجـــارب مـــع مديحهم . فإنها ستذهب بعيدا عن التعبير الأمين مع الـــذات ، الـــتي هـــي منبع النحت الكتابي ، وستكون كتابة ظالمة للأمانة التلقائيـــة في ذات الكاتب .. أليس في هذا مغالطـــة لهمـــه الخـــاص ولمســـته الخاصة؟!

ألسنا بحاجة في كتاباتنا إلى تلك الحماية ، التي تأخذنا في حضنـــها الدافئ نحو الأمان ؟

في دهاليز حياتي القروية ، تكمن ذرات تفصيلية ، لا أجد أغلبها- الآن على الأقل - جديرة بالكتابة ، وعالمي القروي .. لا أتعامل معـــه كمادة جاهزة ، و لم أضع في ذهني حين أخذت في التركـــــيز عليـــه بنظرة أنه منهل كتابي خاص كما نظرت بعض التناولات النقديـــة .. أبدا ، وإنما هي جاذبية الألفة وجاذبية الحنين والمحبة ، بالطبع فتلـــك الكتابات تأتي من ذاتي ، أو بمعـــنى أدق ، تخـــرج مســـبوكة مـــن الـــذات.. دون قصدية تعمدية .



www.ibtesamh.com/vb

هي مشروطة بالمدى التأثيري ذي البعد الوجداني العميق ، لـــذا فتفاصيل ذلك العالم مزروع في ذاكرتي بكـــل جزئياتـــه الملقـــاة في الداخل .

إنني أسترجع أشياء دقيقة ومتناهية التفصيل ، وليس من السهل .. بل من المستحيل محوها مهما تعددت مراحل أو محطـــات المفـــهوم الكامل للحياة والمشوار العجيب بتجاربه الحياتية مع مرور الســـنين داخل نسيج العمر .

إننا نتحدث في حواراتنا الصحفية ومقابلاتنا ، بصورة نحاول فيـها أن نكون انحيازيين ، ونختصر كثيراً من الأشياء التي نراهـــا في غـــير مكانها .. مما يدعونا في أحايين إلى اســـتخلاص الفكـــرة النهائيـــة حسبـــما يتطلبه السؤال .. ونغدو نتحدث

في إطار شبح تنظيري .. أي ذلك الحديث الذي يرد فقط على نســغ المفهوم من السؤال ، لكننا لا نقدر على الكشف عن حميميتنا الكاملة إلا في إبداعاتنا ، ونلجأ مراراً إلى الإجابة على استيضاحات قرائنـــا، أو مثقفينا ، في تعقيبات حول ما قلناه .

لذلك لا يجب محاكمة أقوالنا الصحفيـــة الاســـتهلاكية ، بمقيـــاس محاكمتنا من خلال إبداعنا ، فالإبداع وحده القادر علـــى كشـــف ذواتنا ونفسياتنا .. إذا ما قوبل بالنفسانيين والمحللين المتمكنين .



www.ibtesamh.com/vb

إنك وأنت تقرأ مثل هذه السطور ، وأنت حريص على معرفة الفتافيت .. لا تستطيع اعتبارها كل ذات الكاتب ، عليك بالعودة إلى الكتابة الإبداعية والتمعن في كلماتها وجملها .

لا أقول هذا لأنفي ضرورة مثل هذه الكتابة التي بين يديك .. فهي قد تشكل أهمية إضافية ، لكنها بمثابة الرافد ، وليس الاكتمال المعرفي بأصول ذات الكاتب .

لذلك ، فليس من السهل على من يكتب مثل هذه الصيغة ، أن يوضح لك كقارئ متحفز ، كل ما ترغب فيه .. لماذا ؟ لأنه لن يقدر .

ليس السبب التحفظ ، فهذه افتراضية قد تكون في غير محلها، وإنما لأنه غير قادر فعلاً ، لهذا فعليك بالعودة إلى إبداعاته الكتابية .

إنني لا أستطيع أن أكون واصلاً إليك تجاه وجداني وألفتي مع شخوص قصصي ، ومناطق التقاط تفاصيل قريتي إلا في كتاباتي الإبداعية ، ولو ادعيت غير هذا فلا تصدقني . والأمر ليس بيدي .

هكذا تكون أهمية الإبداع في معرفة ما رواء المبدع ، وأظن أن هذا طبيعي ، لأمر بسيط : وجدوك كوحدة موضوعية صادقة وحقيقية في إبداعك .. تنعكس في عملك دون زيف ولا محاذير إن المتعب فعلاً ، هو تصورك للقارئ الشكلاني الهندسي ، الذي يقيسك



www.ibtesamh.com/vb

بمقياس وصف ( بلزاك ) مثلا حيث يصف في عشر صفحات مائدة أرستقراطية .

دعني أشكو إليك همي ..هو مقدار تنغيم الأشياء في دواخلنا .. مقدار تجاوبنا الوجداني المربوط بالصورة الذهنية للشيء الموصوف فيما نقرأه .

فعندما أنقل إليك عبارة قروية .. بلغة أولئك القوم – بالمناسبة لا أعني لغتهم التخاطبية – .. فإنني ككاتب أعني أهميتها الدلالية، التي تأخذ عندك عمق المعنى والدلالة ، وتأخذ لها في ذهنك صورة، وهذه الصورة تحفر لها مكانا مرجعيا ، تستطيع أن تجعله قاعدة منها يثبت المعنى المقصود بدلالة اختياري لها هي بالذات .

أرغب في التنبيه إلى أن كثيرا من الكلام قد يأخذ شكل التوصية ، إنني أكتبه بنوع من الوجع الذي يحفر في داخلي .. لأنني أواجه بأسئلة فجة أحيانا ،من قبل معترضين مثقفين ، مما يدعوني إلى التوضيح لبعض المناطق الكتابية في شأن الأعمال القصصية التي أنتجها .

إنها – أي الكتابة – ليست مساومة ، ولا تقبل التفاوض أو المداراة ، فأنا عندما لا أكون واثقا فإنني لا أكتب .. اعني عندما لا أجدني حميميا وقادرا على إفراغ الألفة فإنني أتوقف إلى حين لا أعلمه .



www.ibtesamh.com/vb

قل إنني أندفع بسذاجة ، أو أن شكل القصة الفني لا يعجبك .. فليكن ، ولكن لا تقل إنها ليست دمي واشتعال وجداني ، إن مقدار تعاطفك معها ..هو نهاية مرامي ، لأن هذا يعني أنني استطعت أن أصل إليك دون أن أقدم لك رشوة جمالية جاهزة .

فلو فعلت ذلك لحرمتك من حرية شكل الصورة لديك، وحاصرتك في إطار تصوري الخاص ، وهنا فقد ساهمت في إسقاط أهم غايات العمل الفني .

إذاً ..

فالثقة التي كنت أكتب بها عملي ..هي تلك التي تجعلك تقرأ بثقة واطمئنان .

فأين لك حسبما تتصور قرية بكامل عالمها ..كما ترغب، ولديك كل المقومات وأنت تقرأ هذا العالم الخاص الجميل العجيب .

السؤال ذاته نبهني إلى تفريعة أخرى – مع كونه سؤالاً تقليدياً، وخالياً من المسئولية – فنبهني إلى ضرورة التوضيح في بعض جوانب الكتابة عندي عن القرية ، إلى سؤال طرحه أحد القراء المتابعين، ومضمونه الآتي :

ألا ترى أنك تكتب عن إيقاع مجتمع يكاد يكون الماضي ، وأنه يأخذك عن الكتابة حول إيقاع الحاضر ؟!

هكذا فهمته ... و ...



www.ibtesamh.com/vb

هكذا يكون جوابي :

عالم القرية الذي أكتب عنه ، هو عالم إنساني وطني متميز .. عالم يدهش بتمسكه بقيمه الإنسانية وترابطه ، وديناميـة حياته التكافلية ، ومدهش بقوانينه المعيشية التي أختطها وأقامتها اعتبارات على احترام حق الفرد ، واعتراف بالآخر حتى ولو بعيداً في التوافق.. لكنه يقيم معه التصالح .. التصالح في كل علاقته مع الأشياء التي يحتك بها في حياته اليومية .

إن للإدارة التي تقدم له نفعاً في شأنه الزراعي : معنى وألفة ومكانة ، بل هي جزء منه .. فكيف بالكائن البشري الذي يقاسمه ذات المعطى وذات الإنتاج ؟ وكيف به في علاقته مع ماشيته وزرعه ؟!

إذا قلنا إنه عالم جميل .. فإنني أعني أنه مجتمع مصغر يحاول ردم الفجوات التي توزع تآلفه مع بعضه البعض ، وفي إطار الوحدة المربوطة بالقيمة الأخلاقية السلوكية الإنسانية ، بعيداً عن المؤثرات القادمة إليه من خارج محيطه المحدود .

استقلالية اعتماده الذاتي ، ليس هناك وجود لموجود لا حاجة إليه في القرية .. ليس هناك مبرر لخلق أي شان استهلاكي لا فائدة منه ، حتى في اللغة .



www.ibtesamh.com/vb

إنها قيم عظيمة لا نمتلكها اليوم في حياتنا المدنية الهامشية .. إنها الإنسانية المبسطة المنقاة من التكلف ، الحريصة على سحنتها وماهيتها ووطنيتها البديهية الأمينة الصادقة .

هو ذلك العالم الذي لم يؤسس على الصيغ الفلسفية والتنظيرية التي تقرؤها في الكتب أو تلك التي تصنع فينا أخلاقا إليكترونية .

إنه عالم نحت خصوصيته حسبما تحتاجه ضرورته دون إملاء، ودون محاباة ، ولا يحتاج إلى وصاية خارجية ، وعندما أخذت الوصايا الخارجية اللا عادلة تغزو حياته .. راح يتفسخ ويفقد بفعل الزمن تلك الإيقاعية التي بني عليها منذ أجياله السابقة .

ذلك العالم الملتحم بإنسانيته وعدالته ومنهج كسبه المعيشي .. ليس جامدا كما يظن السائل المحترم ، إنه يتطور مع الزمن - بمقياس الأجيال - ولكن في حدود الحفاظ وليس التخلف أو الصلابة .

إنه ليس ضد المعطى الحضاري للإنسان ، ولكنه ضد استخدامه اللا إنساني ، إنهم يسخرون من أشياء عجيبة يرون أنها تفتت وحدة قيمهم .

ليسوا أصحاب مدينة فاضلة ولا يحزنون.. مثلهم مثل المجتمعات ..مثل بني الإنسان في أي بقعة تخلص لتكافلها الإنساني ووسيلة إنتاجها الطبيعية ، ولهم تشوهاتهم ونزواتهم وأخطاؤهم ،ولهم مفاهيم في مناطق من حياتهم بالغة الرواء لكنهم في إطار المفهوم والمخزون،يبقون ضحية لها مثل بقية المجتمعات في كل



www.ibtesamh.com/vb

البقاع . إنهم ليسوا ندرة الأيام ، أو ( مثل ) الأنموذج الإنساني ، ولكنهم أناس حقيقيون يخجلونك بنقاوتهم وأصالتهم ومحبتهم للخير والقيمة الفعلية لمعنى التآلف الإنساني ، الذي نفتقده .

إنني أومن بشدة وطنيتهم ، ورفضهم للشعارات ، وإيماني ليس تنظيرياً ، و لا معتمداً على شواهد هندسية .. بل من نسغ واقعهم الذي أنا فرد منه متشرب بقوانينه الفعلية الصادقة .

كم نحتاج من الأمانة و التهذيب ، حتى نصل إلى تجنب الوقوع في التشوه حتى لنتعلم دون أن نفهم معنى الوطنية الإنسانية مثلهم دون عناء ، أو شعارات ؟!

في جانب تفريعي للإجابة على السؤال الآنف أقول : إن ما أكتبه بهذا الوجدان الفائض بالحنين .. حنين الماضي ، هو بعين الحاضر، وهذا أمر طبيعي ، وبديهي توضيحه : إنني لا أستطيع أن انتزع رؤية العصر من يقيني وفكري ومفهومي ، والتي تنظر إلى العالم بعينها الواقعية الإنسانية وأتجرد منها ، حتى أكتب عن ذلك الماضي .

الجانب الآخر ، أنني لا أستطيع اقتطاع جزءاً أليفاً حميمياً من حياتي الطفولية ، والشبابية الأولى .. بل لا يستطيع أي كائن بشري في التاريخ أن يفعل هذا .. فكيف لا أكتب عنه بمنتهى التجاوب والوجدان والحنين ؟!



www.ibtesamh.com/vb

أرى أن التأكيد على محاكاة ذلك العالم .. عالمي الكتابي القروي الخاص ، جدير بي أن ألتفت إليه أكثر .

لا أستطيع أن أتجاوب كثيراً مع المدينة في إبداعاتي .. فهل يعني هذا أنني أكتب عن الماضي الذي يهزني الحنين نحوه ، وتهزني نقاوته وصفاء علاقاته ومعيشته .. أليست هذه قيماً حضارية نفتقدها اليوم ؟

لم يعد في خاطري يوماً - و أرى أن هذا لا يحتاج إلى تزكية - ، أن أكتب عن تلك المنطقة بنظرة المكان الإقليمي ، أو القومي ،بل إن ما يشدني إلى الكتابة عنه ، معرفتي به وإعجابي بخصوصيته وعرفه القانوني الإنساني .

القرية في الجنوب ، ليست كأي قرية في مكان آخر ، ولا أعني بالاختلاف في الطبيعة أو سبل الإنتاج ونوعيتها ، وما تتشابه فيه قرى المعمورة .. أعني مأكلها ومشربها ولبسها وفلكلورها وقيمها ألم أقل ؟!

لن أدعمك بكل ما أريد قوله .. عُد إلى القصص والروايات التي كتبتها . هناك تجد الجواب الكامل .



www.ibtesamh.com/vb

# الكتـــابـــة والمناخ الاجتمـــاعي



www.ibtesamh.com/vb

يبدو لي أن الكاتب مهما كان بعيدا في تناوله الكتابي عن واقعه.. فإنه لا يستطيع أن ينفصل عنه ، وذلك لسبب أرى أنه لا يحتاج إلى شهود ، وهو : أن الطبيعة الإنسانية تعود في تراكيبها إلى أساسها الأول ، ذلك الأساس المنشأ ، الذي أمكنه من خلاله تحديد وظائف قنوات المعرفة لديه .

تلك الذائفة الحسية -الأولى - التي أنطلق منها إلى تحديد قيمة الأشياء .. القيمة المعرفية وهي تأخذ في تشكيل لونها وطعمها ونكهة حسها ، عندما كان يتلقاها في حدود الحضن - ا لأول- .

هناك ..حيث تبدأ أبجديات الحروف ، واستقامة المفهوم الشامل لمعنى إدراك الأشياء ، ومن ثم نوعية العلاقة بها .

أما مسألة الكشف عن حقائقها وواقعية جواهرها ..فتلك ترتبط على امتداد العمر ، بحكم التجربة والثقافات المكتسبة مع تعدد الوسائل .

الكاتب هو ذاته غير الكاتب .. هو الفرد الطبيعي الذي يختلف عن البقية . بعيدا عن المميزات الإبداعية التي تربت على يدي الموهبة . إنه هو ذلك الإنسان الفرد البسيط ، الذي يتلقى معطيات المعارف الحياتية ، مثلما يتلقاها الآخرون .

الفرق هنا ، هو كيف يكون مقدار تعامله واحتفاله بها ؟ ما هو مقدار التلاؤم الحسي بالأشياء مع مستوى الموهبة ، تلك الموهبة التي تصنفر المتلقيات ، وتنظر إليها كشيء مختلف عما تراه العين العادية .



www.ibtesamh.com/vb

تلك النافذة الحسية التي تدخل منها ذات الشموس وذات الرياحات المارة على كل العباد .. لكنها عنده تكون بتفسير آخر .. أكثر تفصيلاً ورحابة واستضافة وإكراماً .

هو لا يملك شيطاناً للإلهام ولا يحزنون ، يملك قدرة منظور بحكم التجربة ومقدار إتاحة المكان الفسيح لترعرعها وتنميتها ، وبمقدار استخلاصها بأمانة وصدق .

إن الإبداع الكتابي الناجح ، هو ذاك الذي يقترب من حقيقة الأشياء ،" الحقيقة " الكامنة في الداخل ، والتي لا يجرؤ على كشفها الآخرون . الحقيقة العذبة والمشتبكة في ذات الوقت .. تلك التي لا يمكن لأحد أن يقبض على زئبقيتها المراوغة .

لذلك يختلف المبدعون عن بعضهم البعض ، ومع هذا قد يكونون نشأوا في ذات العالم ، وذات البيئة .. بل ذات البيت والظروف . إذن ، فلماذا تعني الكتابة بالنسبة للكاتب ؟

ولماذا يلجأ إلى هذا الرشق الحميمي المر . لا أريد أن أتحدث عن الواجهات القشورية للأهداف الكتابية .. لا أعني أولئك الصناع، الذين يحملون بطاقات الجواز الاجتماعي والمناسبات والحفلات .. لا، بل أتحدث عن الكتابة الإبداعية بسموها نحو العلو لاكتشاف الحقيقة .. تلك الكتابة التي يكون مدادها من الحس والدم ..ليس بالضرورة أن تكون في حقل إعجابي أو تذمري ، بل إنها تمسني وتمسك ، تقول ما لا تقدر أنت على قوله .. فتصرخ "ليتني كتبتها "



www.ibtesamh.com/vb

إن الغالبية ممن يسمون أنفسهم بالكتّاب ، ليسوا من جماعة ذلك المركب ، إنهم يقحمون ذواتهم ، لكي يرضوا الرغبة والمطمح، المسألة ليست رصد الأشياء وسرد الحوادث .. وليست فرض الأصابع على المسك بالقلم ، وتسويد بياض الورق .

فليقل الآخرون إن هذا عمل كتابي روائي – مثلاً – لا غبار، ولكن ما هو القياس المنطقي ، الذي لا منطق له والذي يستطيع أن يتفسح مع الكتابة الإبداعية في جولتها الرحبة الزاهية ؟

قد تقرأ عبارة ، أو سطراً ضمن السياق الروائي ..فتجد أنه يفعل بك كما تفعل أسرة الفقرة الشعرية المكتظة بكل قوانين الجمال والمعنى ، والنغم والبيان ، لكنك تقرأ عبارة سهلة ولا تبدو بهذا القياس المقولب الذي اسمه شعر .

الآن ..

كيف يرى مجتمع تتنهبه المزالق الاستهلاكية ، وتطوف به السبل المختلفة ، فتعرف في ذهنه ذوقاً تافهاً ، تقليدياً وهابطاً ..كيف يرى الكاتب ، وكيف يتعايش الكاتب معه ..تلك المعايشة التي لا اختيار له فيها ، ولا يجوز له أن يقيس طموحه الإبداعي من خلالها ؟ كيف يستطيع الكاتب الملاءمة بين إبداعه الكتابي وبين المناخ الاجتماعي القاصر النظرة ، والأمي القراءة ، الفقير الثقافة ؟ فالكاتب سيدخل في دهاليز معتمة ، وما جدوى الكتابة ، والنفور من مرارة الواقع المتلقي لما يبدع فلمن يكتب ، ولماذا ؟



www.ibtesamh.com/vb

إني لن أجيبك عن مثل هذه الأسئلة الصحفية .. لكنني - وعلى ضوء التجربة المعرفية - سأقول : عليه أن يكتب .. بالطبع قد يكون في هذا تجريد ، غير أنني لا أعني ، مخاطبة الواقع الاجتماعي البعيد عنه باستعلاء كما يخاطب رؤوس الفجل ، بها أعود إلى تلك المنطقة التي قلت فيها : إن عليه أن يكون كل شيء.. المهندس والطبيب، و المصلح و ... الخ . القياس هنا قياس لا يستطيع أن يتفلت منه، لأنه يريد أن يقول شيئاً مهماً وصادقاً وفعالاً . وإلا فإنه سيبقى مستهلكاً معانداً للحبر والورق .

إنه إذا كان يستحي من نفسه .. فسيعلن لها توقفه ، وليبحث عن شيء آخر يفرّغ فيه طاقته . فالإبداع ليس له .. مهما فرش له البسط والطنافس المريحة .

إن مسألة كهذه تبقى رهينة الصدق والمعرفة بمستوى الإنتاج بين المتلقين على مختلف مستوياتهم ، من هنا ، فإن أهم شروط النجاح الإبداعي ، هو الأمانة والصدق ، مع الذات الإنتاجية في قاعدة الإبداع .

نعم .. تستطيع أن تبقى زماناً ، توهم خاطرك بأنك ذو موهبة كتابية ، لكن حقيقة الفعل الإبداعي ، إذا لم تكن حميمية معك، وحبيباً لها ، فلن يكون إبداعا . سمه ما شئت ، أو أوهم داخلك ما شئت إن كنت لا تحاسبها بصدق .. فالمنطق الإبداعي الذي يسايرك به الآخرون على حساب ذوق البشر ، وإفساد مفاهيمهم وفوائد



www.ibtesamh.com/vb

الإبداع وشروطه .. لا يلبث أن يذهبه غربال الأيـــام – التـــاريخ – القارئ ذو الحس .

الكتابة الإبداعية ..هي النبض الإنســـاني المرهـــف ، وليســـت تكدسات السطور على الورق ، ولا إرضاء الآخرين للحصول علـــى مكافأة التصفيق .

إنها تلك التي تشبه إلى حد ما المعدن الثمين المطمـور في الأرض .. أما الدخان فإنه يعلو إلى الفضاء، لكنه يبقى دخاناً .

الكاتب الذي يعيش متغرباً في مجتمعه .. لا شك أن هناك خلـــلاً يظل هو يساعد على تضخيمه . إنك لا تستطيع أن توجد عالماً جميلاً يتوافق معك ، لسبب قد يبدو ظاهراً ، وهو أنه ربما لو كان كذلـك، لما احتجت إلى كشف الفَتْك الجدري بوجه العـــالم ، ولمـــا آلمـــك ما تـــراه معوجاً .

حسناً .. أنت تطالب بالإصلاح والعدل وإرساء قيـــم الحريـــة والنماء ، و.. و.. هل يمكنك بموضوعية منطقك الإبداعـي الآني ، أن تتصور العالم بلا تشوهات ؟

بالطبع لا ، وبالطبع فالحياة الإنسانية دائماً تطـــالب بـــالأفضل، الأفضل المطلق اللانهائي .

إذاً ، فأنت تبدأ من هنـــا ، من عند إصبع قدمك . أليـــس مـــن الطبيعي عليك كمبدع مثقف ، أن تصدمك الخطوة المتغربة والمنفـــرة أحياناً ؟ طبيعي ، وربما كان شرطاً لمواصلة إبداعك .



www.ibtesamh.com/vb

إن من طبيعة المبدع – الإنسان – أن يكون متميزاً ربما بحث عن ذلك في هيئة ملبسه ، أو طريقة تعامله مع الأشياء .. مسألة ليس القصد منها البروز ، حتى ولو ظن ذلك .. بل بسبب مخالفة المألوف، وكسر التقليد .. لا أعني هنا التقليد ، ما يظنه الآخرون، في إطار معركة التقليد والحداثة بالمقلدين في الكتابة والإبداع، و إنما يظل الحديث في إطار التقليد بمجمله .

لقد خلق الفنان ليكون قائداً حقيقياً متقدماً طامحاً ، ليس بمنظار الزعامة التقليدية .. بل قائداً في كشف الحقيقة الحسية المخبأة لدى المجتمع ، والسعي وراء إرساء قيم الجمال .. الجمال الذي يمر به الآخرون مرور الكرام ، أو لا يستطيعون خلقه وإبرازه لقنوات المعرفة لدى الإنسان .

هل ينتظر الكاتب من مجتمعه الحصول على إشارات الأصابع، ليمشط رأسه ، ويدل ربطة عنقه في الصباح والمساء .. وليكتب للسينما الاستهلاكية ، وينقب عن فرص الشهرة الإعلامية .. وبعد : فإنه سيغدو نجماً للمراهقين والمراهقات .

عليه إذاً أن يكذب ، ويخادع الطفل الجميل الوديع الذي اسمه الفنان في داخله لكي يغدو لامعاً .



www.ibtesamh.com/vb

إن القول في مسألة قمع الذات البشـــرية في الفنـــان .. مســـألة غبيـــة، لا يمكن محوها لذا كان على الكاتب المبدع التعامل معـــها في إطار كرهها في الآخرين ، وقمعها إذا ما طغت .

فالكاتب – المبدع – ليس إلا حاملاً ومربيـــاً لموهبتـــه .. هـــي ليـــست اختيارية مزاجية ، عليه أن يكون أميناً معـــــها ، ومخلصـــاً ومتحرراً من زخرفة الأنا التي لا تشبع إلا بانتهاء الحياة .

لست ممن يقفون ضد النزعـــات البشـــرية في الكـــاتب .. إنـــه إنســـان ، لكنني أرفض بشدة – كما يرفض هو إن كان أميناً – كل الحفلات التميزية . التي ستقوده إلى أن ( لا يقول شيئاً ذا أهمية ) .

في مجتمعاتنا المتخبطة بأوحال التخلف ، والأمية .. لابد للكـــاتب أن ( يعاني الأمرين ) كما يقال ، إنه يقابل بالإعراض .. فيحتـــاج إلى أن يقرأ ما كتبه على الجدار .. البحث عن الثمرة للإنتاج ، عـــن – ردة الفعل المباشر – وتلك قضية طبيعية .. لكم عليه أن يتوقع مـــالا يحب ، عليه أن يتوقع الحجر قبل التقبل الحسن واللمســـة الدافعـــة . تلك قضيته التي تحتاج منه إلى نظرة لا يمكن أن تكـــون إلا واقعيـــة، ليستطيع أن يتخاطب ويخاطب الأشياء بفاعلية . تسوقه نحو اســـتمرار العطاء والإنتاج ، إنه يحتاج إلى أن يقيم منظوراً تصالحيـــاً ، لكـــي يبقـــى مستمرا ً ، ليس في الإبداع فقط .. بل في الحياة أيضاً .



www.ibtesamh.com/vb

* * *

عندما كتبت مجموعة القصص الأولى : ( موت على الماء ) .. كنت في الرابعة والعشرين ، وقد بدأت منذ العشرين في الكتابة التي تهتم بكسر التقليد ، لقد كنت أكتب حتى الرسائل الخاصة بطريقة مخالفة المألوف .. وقس على هذا الكتابة الإبداعية .. إنها ستكون أوغل مخالفة ، وبالتالي أوغل زخرفية وضبابية .

وقتها على ما أذكر عام ١٩٧٧م . صدرت مجموعة القاص ( محمد علوان ) الأولى بعنوان ( الخبز والصمت ) . ثم صدرت قصص : ( موت على الماء ) في عام ١٩٧٩م ، وكان فيهما تمثيل لأدب القصة القصيرة المحلية الحديثة .

لم أكن أعني بموضوع النشر في كتاب مطبوع ، إذ كنت لا أكاد أنتهي من كتابة العمل .حتى تكشفه صفحات الصحف، وساعدني كثيراً وجودي كمحرر ثقافي في ملحق ( المريد ) بجريدة (اليوم ) . في هذه المحطة أخذت أعمالي التشكيلية تنحرف نحو منعطف آخر .. نحو الرسم ( بالحبر الشيني ) على المساحة البيضاء. وذلك بدافع الوقت الذي تتطلبه اللوحة الزيتية .



www.ibtesamh.com/vb

كنت أكتب العبارة الأدبية بالطريقة ذاتها في القصص .. حيث اللغة الجاهزة والضبابية ، وبالطبع فالتغريب هنا ، كان بالغاً ، ومع هذا لم أستطع التمرد على البيئة القروية الأولى .. تلك التي انزرعت في الوجدان - كما أسلفت - .

كانت كتابة غنية بالصورة الجذابة ، لكنها لا تكاد تقول شيئاً، فهمّها هو نسف المتعارف عليه .. لماذا ؟ لأن الرؤيا وقتها كانت قاصرة . إن من الأسباب الأساسية في التخلف الثقافي والاجتماعي تكرار وتقليد نتاجات الموروث الأصفر ، وعلى هذا فلن يكتب شيء جديد يتمشى مع قضايا اليوم ، وهم الإنسان المعاصر .

ولكن ..

إلام أدت تلك الكتابات من قبول لدى المتلقي ؟ وماذا استطاعت أن تخلق من وعي لدى القارئ ، المتعطش إلى الكلمة التي تعني بحياته وقضيته وطموحه ؟ بالطبع كانت تلك الكتابات لا قضية لها غير الإنسان .. الوطن ، الإنسان الذي هو في حاجة شديدة إلى أن تقترب به من مفهوم أرضه وناسه ، لكنها كانت بطريق يذهب بعيداً عنهم .

كان من المثقفين فقط ، من أولئك الذين يكتبون شبه ما أكتب، وبالتالي فالدائرة محدودة ، وفاعليتها كذلك . إنها تقوم على افتراض الوعي في الآخرين .. على افتراض وجود مجتمع يعلم اللغة الإليكترونية .. التي لم يصل إليها أحد بعد . بعد ( موت على



www.ibtesamh.com/vb

الماء ) التي تمثل تلك المرحلة الرافضة للمألوف دون الرؤية المدركة.. بقيت زمنا أكتب في أجناس أدبية أخرى ، كالشعر المنشور، وتجارب روائية ، وتوقفت عن نشر القصة القصيرة ، بل أهملت الالتفات إليها ، ومضت سبع سنوات . ثم صدرت المجموعة القصصية الثانية : ( أسفار السروري ) .

هذه القصص تحمل تواريخها و أماكن كتابتها ، وتزامنت مع مرحلة كتابة روايتي الأولى ( الوسمية ) .

لقد كانت هذه الرواية ، هي المفتاح الحقيقي لقفل المخزون الشعبي ، والحياة القروية التي كانت تظهر وتختفي عبر مفاتيح صدئة قليلة فعلت فعلاً ضئيلاً في الكشف عن الرغبة المتمردة عن ذلك العالم ، وذلك للإحساس الذي يحمل رؤية المرحلة بأن المجتمع الشعبي ليس بقادر على نقل ما أريد قوله عبر رؤية العصر .

لقد كانت نظرة قاصرة بالطبع ، ولكن إلى أي مدى بلغت هذه المغامرة في خطوتها الجديدة ؟

قلت .. إن وقت كتابة رواية ( الوسمية ) كان في الشتاء عام ١٩٨٢م بالقاهرة . حيث بقيت لمدة سنة . أكتوبر ٨١- نوفمبر ٨٢، بقاءً مكرهاً ، وبالتالي فقد كان الحس بالبعد متضخماً، وكانت الكتابة في أحوال عالم القرية تمثل الحميمية والحب



www.ibtesamh.com/vb

والالتحـــام . كنت أكتبها كما لو أنني أتعايش معهم وأشـــافههم، في تفاصيلها الواردة .

صادف وقتها ، أن دخلت مرحلة صحية جديدة وقاسية .. حيث كان عليّ عدم القدرة على المشي وحيداً دون مســـاند .. فكنـــت أضطر إلى القعود طويلاً في البيت .. كان معي زوجتي ، وكـــانت لي سنداً طياً وقد أهديت إليها ( أسفار السروي ) .

لقد عانيت تعباً مراً لكنه كان جميلاً في كتابة ( الوسمية ) ذلك أن هذه المغامرة كانت تسبح بالمخاطر الكتابية ، وبالصراع مـــع اللغـــة التي كتبت بها ، لم أعرف المعنى الحقيقي لعناء الكتابة ، من قبـــل .. مثلما عرفته فيها ، فعالمها – لاعتبار– يعيـــش في جوانحـــي بكـــامل تفاصيله ، إضافة إلى الدافع الحميمي – كما قلـــت – بحكـــم البعـــد والإكراه غير أن الحرب المشتعلة على جبهة تلك المغامرة .. كـــانت قائمة بين ما تحمله ، وما تريد أن تكتبه .. أعني حرب الحل الكتابي . لم أجدني عاجزاً أبداً في إفاضة القلم ، وطيلة معرفتي به ، ولا ضعيفـــاً في صياغة الجملة ، ونحت العبارة ، بل اعتدت على كتابة ما أريـــد بسهولة – أعني بمستوى الحل الكتابي والصياغة – ، وعندما جـــاءت ( الوسمية ) وجدتني أتنازل عن كثير من هذا ، فأنت أمـــام عـــالم، وتريد أن تقول شيئاً يشغلك مـــهماً ، ويســـتوطن أضلعـــك بحبـــه وتفاصيل معيشته ، وتجد أن الأمانة والأمان هما أساسيان في التعـــامل معهما ، فكتبت دون أن يكون لي علم بطرق الروائيين ، الذين قرأت



www.ibtesamh.com/vb

لهم ، في التعامل مع كتابة الرواية . لم أرسم لها هيكلاً، ولا هرماً - كما يقولون - ، و لم التزم بما يسمونه ( الخط الأفقي للأحداث )، كنت أكتب فصلاً قصيراً ، وانتقل إلى الآخر ، تسير بي الأحداث والشخوص ، وتفاصيل الحياة .. حتى أن تأثير كتابة القصة القصيرة - التي إعتدتها - كانت بادية عليها ..فكل فصل بعنوان ، ومع أنني كنت أنبه القلم إلى أن الرواية ، ذات نفس طويل وتفصيلي ، ولكن الخوف والتردد من التجربة كانا يلازماني في كل جملة .

كنت أعرض ما أكتبه على صديق لي ، يمتلك حساً جميلاً ومفيداً ويهتم بموروث الشعوب ، فكان يدفعني إلى أن رأيت أنها قد اكتملت وشجعني على فكرة طبعها في مصر .

اقتصرت وابتعت آلة كاتبة تقليدية ، وطبعتها لي إحدى القريبات ، كانت تعاني من حرصي غير المألوف في الالتزام بالنقاط والفواصل ، والأقواس وخلافه ، ومن اللغة الغريبة القائمة على المشافهة .. لغة المعيش اليومي - لم أكن أعرف هذا إلا فيما بعد ..

وقدمها صديقي الجميل إلى دار فقيرة لشخص طموح فرأى أن طباعتها متعبة ، وذلك لكثرة التصحيحات في كتابتها الآلية .

لم يخبرني صديقي إلا بعد أن جاءني بها يوماً ، وقد نسخها كلمة.. كلمة بيده . ثم ..

طبعت بعد ثلاث سنوات من كتابتها .. طبعتها الأولى على ورق الصحف ، بغلاف تقليدي الخط والتصميم .



www.ibtesamh.com/vb

بالطبع ..كان توزيعها بعيداً عن المنطقة المحلية ، وكان محـــــدوداً جداً – حيث بيع منها حسبما قيل لي مالا يزيد عن ستمائة نســـــخة فقط .. فالدار قد أعلنت إفلاسها ، وتكدست مطبوعاتها في مخزنها .. بل إنني لم أقدر على مقابلة صاحبها أو الحديث معه .

على أي حال كان ..

فقد أحدثت تلك الرواية ما لم يكن في البال . فمع أنها كـــــانت محدودة التوزيع .. إلا أنها تبودلت بطريقة التصوير .

يعنيني هنا ، العلاقة بين العمل الكتابي وبـــين القـــارئ .. تلـــك العلاقة التي بحسها يمكن للكاتب أن يقيس نضج كتابته .

فمع أن ( الوسمية ) كانت كما قلت تجربة أولى ومغامرة قليلـــــة التجربة ..غير أن ذلك علّمني شيئاً جديداً ، أن الكاتب ما لم يكـــــن أميناً مع الطفل الصافي المستكين بداخله ، وما لم يكن مهتماً بأسلوب مخاطبته للآخرين ، فإنه لن يوصل شيئاً مهماً إليهم .

فالكتابة العاجية ، تغفل محيطها . صحيح أنهـــا قـــد لا تجـــانب الـــذات الطفلية في الداخل ، وتتطلع بنقاء إلى البعيد المشرق ، غـــير أن هذا وحده لا يقوّم التبرير في إيصال ما يكتب إلى القارئ .

القارئ ليس من صنف واحد ، إنه بالإضافة إلى معرفتنا بأن لكل جنس أدبي قارئه .. إلا أن للجنس الواحد أيضـــاً قـــراء مختلفـــين



www.ibtesamh.com/vb

والافتراض بأن الكتابة وسيلة فعالة حتمية في تغيير الواقع .. ضربٌ من الوهم .

إنها مثلما أي مؤثر آخر .. لها في الفعالية والتأثير ، ولها عدد محدود من القراء والمهتمين ، وعلى الكاتب أن يدرك هذا ، لأن إدراكه له .. يعني أنه سيقترب في طريقه من صحة مخاطبتهم . الكاتب الذي يكتب مستنداً على وهم الاهتمام والتلقي الكامل .. هو كاتب لا شك طموح . لكنه يعنى أن ذلك لا يبتعد بقدر ما يستطيع عن احتمال مالا يرضى .

إنها مسألة مرة .. لكنها الحقيقة ، وربما تعود إليه بمقدار من الإحباط، فالوهم الافتراضي في مسألة كهذه .. يبقى داعياً وربما محفزاً للإبداع .

مهما جاهد الفنان في أن يكون مثالاً ، لا يمكن تجاوز النزعات البشرية الموجودة بداخله ، مثلما هي في الآخرين ، إنه لا يقدر على أن يكون من خامة لا أرض اجتماعية لها ، هذا من جانب ، ومن آخر فالعنصر البيولوجي له قاعدته ومنطقه ، وبالتالي يطالب بتحقيق فاعلياته عن طريق الإنسان – الفنان – يقيسها بمنظار النموذجية والعصامية والمفاهيم المثالية الأخرى .. إنه يريد تحقيقها في ذات وكيان بشري فقط ، لذلك يبقى الفنان إنسانا كالآخرين .

الفرق هنا ، أنه يهذبها إن شاء ، أو يبدو بها متميزا بقياس العين الاجتماعية في سلوكه ، ليغدو بإبداعه مؤثرا فاعلا .



www.ibtesamh.com/vb

نعم ..

إنه يأكل ويشرب ، ويفرح ويحزن ، ويخفي أشياء ويبين أشياء.. الخ من نشاطات الكائن البشري الطبيعية .

محاولة التقرب من الآخرين .. أمر ضروري ، لاعتبارات عدة، أهمها القرب من تفاصيل خامة الإبداع الذي يكتب عنه لقياس الدمى التأثيري - بطريقته هو - فيهم ، ولإخضاع النفور ، وردم هوة البعد النفسي بينه وبينهم .

وكل هذا ضروري لنقاء وصدق واستمرار العمل الكتابي . فمعنى الالتزام ومبدأ تنفيذه لا يعني التميزية والنفور ، وصهر الذات في قوالب التنظير ، بل باعتبار الذات الإبداعية ..هي ذاتها الذات الطبيعية كأي فرد في المجتمع ، وإنما الفرق في هذا الجانب - الالتزام - هو السعي وراء زرع القيم والمفاهيم الإنسانية الوطنية ، ليس بأداة التقنية الإبداعية ، وإنما بالممارسة السلوكية .

مجتمعنا لا تأسره الأشكال الإبداعية ، مهما كانت صادقة وآسرة، لأسباب عديدة ، بل إنه يهتم جدا بالعملية السلوكية القائمة على احترام الآخرين ، وإثراء القيم الجميلة وتطبيقها بينهم وأمام أعينهم . وليس من السهل على الكاتب - المبدع - أن يعيد رسم صورة كان يتوقع المحيط أن تكون جميلة ، فإذا بسلوكه عكس ما يكتبه .



www.ibtesamh.com/vb

إن القضية ليست قضية قول مكتوب على الورق ، ولا نصب شعارات وطنية تطالب بحق الوطن .. تلك مسألة سهلة ويسيرة ، لا يشفع لها مجال الإبداع ، ولا لافتاتها المعلنة .

المسألة ببساطة يمكن أن تكون في كل فتافيت الحياة ابتداء بإشارة المرور ، وانتهاء بمقام الرأي المعلن في وجود آذان الجميع، التي تستمع و لا تستمع .

من التفاصيل الجزئية البالغة في الصغر ، يمكن أن تكون تطبيقات المفهوم الوطني .. على شتى المستويات .

* * *

على هذا القياس التفصيلي ، كسبت طريقا موصلا إلى المتلقي، من خلال الإبداع الكتاب ي، وعلى ضوئه من خلال تجربة ( الوسمية ) أدركت أن القارئ يبحث عن الكتابة التي تهتم بواقعه وملابسات همومه وطموحاته . هنا ـ يمكن للكاتب أن يدرك مقدار العفوية الواقعية ، ومصداقية التعامل من الداخل النقي المتضخم بالهم العام في نسيج همه الفردي المتوثب لإصلاح التشوه .

بلغتني ردود فعل جديدة ومحفزة من خارج حدود عالم الرواية، في الداخل ومن خارج الحدود .. عربية وغير عربية .



www.ibtesamh.com/vb

بالطبع ..حدث بعض المعارضة من زملاء عاشوا ذات العالم فكنت أتعامل معها بكثير من البحث والمناقشة ، غير أن الذي بدا يختلف عما كنت أرغب في معرفته . كانت تتمحور حول أن رواية قائمة على الشفاهية واللغة المعيشة اليومية ، تعتبر غير مواكبة للغة القص الحديث . رحت أحاور العمل بدقة ضمن إطار ما يسمى باللغة الحديثة ، إذ أن لغة ( الوسمية ) كانت لغة حية . وما يدعى بالحداثة ، كان يقصد بها – حسب الحوار– هي أن تكون ملتزمة بلغة النص المسايرة لمود يل الكتابة .

أعتقد أن اللغة التي يكتب بها العمل..ليس من الواجب لكي تكون ( حديثة ) لكي ترضي المسايرة العامة بشكلها القشوري .. إنها تحتاج إلى إيصال ما تريد قوله دون الإسهاب والركاكة والاستعراض . إذ أن ذلك المفهوم الذي تلقيته منهم ، هو ذاته الذي عزلني عن الواقع الاجتماعي ، وغربتي للابتعاد عن الوصول إلى المتلقي .

إن المسألة ليست كيفية التدخين ومسبباته ودوافعه ، إنها العمل الإبداعي الذي يريد بجدية أن يقول شيئا ، أو ليصمت .



www.ibtesamh.com/vb

# الكتـــــابـــــة والمـــــــرأة



www.ibtesamh.com/vb

عندما كنت في الحادية عشرة ، كنت أحب حبيبة من قريتنا، و لم أكن لأبوح لها بما في داخلي ، كنا نلتقي كثيرا ، وبصورة تكاد تكون يومية ، وذلك بحكم الرعي والتواجد قرب مزارعنا .

أذكر أنني عندما يقع لي نصيب ما في الأشياء الحلوة أحفظه حتى أقابلها .. فنقتسمه في محبة وضحك .

وعندما جاء أبن عمها ليخطبها ، بدأت أزداد بها حبا . هنا أقول : ظهرت عند الصبي .. أولى تجاربه تلك . المعرفة الغريبة في مرحلتها ، والتي تأخذ شكل الشرعية البديهية ، في امتلاك الأشياء، الأشياء الصاعدة نحو الغلاء والندرة في قيمتها ، فكلما كانت الأشياء صعبة المنال ، كلما غلت قيمتها في نظر المحتاج إليها .

قد لا تكون بذات القيمة الحقيقة في فاعليتها .. لكنها هنا لا تخضع لمقاييس الأوزان والمساطر ، إنها باختصار ، لا يمكن وزنها أبدا ، ومع ذلك فهي متشبثة بقانون الحياة الرحبة ، التي لا يجد لها الصبي حدودا ، ولا يدرك غير تواجده في دواخله .

كان من العيب ذكر كلمة ( حب ) وكان يمارس بتنفيذه بين الجنسين على أنه ليس حبا ، وليسم ما يشاء . كانوا يقولون عنه (صحبة ) فلا ينتظر من صبي مثلي وقتها أن يبوح بما بداخله ، أو يسأل نفسه عما إذا كان ذلك حبا أو صحبة .. فالذنب سيزداد وحدود معاني ذلك الذنب لا يمكن معرفة معالمها ، فكنت فقط أعتمر في داخلي بذلك الشعور الحميمي المركب بالغيرة وحب



www.ibtesamh.com/vb

الامتلاك والوله الصبياني ، لم أسألها يومـــا ، و لم تســـألني .. لكننـــا نحـــب بعضينا دون ريب .

قلت إنها عندما ربطها إبن عمها ، ربطا قام على الكلام مـــــع أبيها ، رأيتني كالقط الذي يحوم على الأسوار متشمما خلف روائـــح الطعام ، يخاف أن يقتحم عتبة الدار لكيلا يقـــــع تحـــت الضـــرب والتأنيب . هكذا يجد نفسه .

لم يكن ( الجنس الآخر ) – كما يقولون – غير أنه مصدر لحســـن سام اسمه ( الحب ) وبقيت على تلك المفهومية الصبيانية ، تترسب في الوجدان وكنت أعجب جدا من المشادات الكلامية الـــــتي كـــانت تحدث بين والدي مثلا ، أو آخرين متزوجين ، ( أليست كل علاقـــة بين جنسين .. هي المحبة والتسامي ؟! ) .

لقد بقيت بعدها بأعوام .. أعيش طقسا من الإحســـــاس بظلـــم الناس ، وبأنهم لا يقيمون وزنا للحس الوجداني النظيف ورأيتـــهم في حبيبتي تلك .. يقسرونها على الزواج .. الزواج من رجل بصبيـــة لا مكان لقلبها عندهم ، ولا مراعاة لحبيب أخذت من بين عينيـه ، دون مرأفة بقلبه الصغير وصدق محبته ، بل ركلوا بكل مشاعر "قيـــــس" الصغير عرض جدران البيت الصخرية ، وفـــوق صخـــور الجبـــال، وليأت الله بما شاء من الأقدار .

كنت أنظر إليها جميلة حلوة ، بين يوم وليلة تتحول من حبيبـــــتي الصبية ، إلى امرأة تتزخرف بالحلي ، وتذهب مع النســـــاء في كـــل



www.ibtesamh.com/vb

الحوائج ، وقدر لي مرة أن أقابلها مع أمي في طريق العودة من عند بئر ماء قريبة ، فكانت تنظر إلي بعينين كبيرتين مكحلتين لم أعهدهما من قبل ، و لم أتحدث إليها..كنت أتوقع أن تحدثني ولو " بالسلام عليكم ". لكنها قالت دون أن تلتفت "والعون" ، وهو سلام مقتضب يقال لأي عابر طريق أو غريب ..غير أن هذا خلق في داخلي مفهوما

جديدا : أهكذا يكون الآدمي ، عندما لا يريد أن يحفل بأحد ؟ وهل كل النساء يبدلن قلوبهن مثلما تتبدل أعينهن بالكحل، وتزخرف ظواهر أبدانهن بالحلي ؟

أسئلة كانت تعذبني قليلا ،كنت أكتب الأشعار ، أشعارا تعني من وجع ما قامت به حبيبتي الصبية تلك ، وما قام به المتآمرون في حقي وحقها .

و لم أكن لأحقد عليها ، ولا على أهلها .. كنت أحقد على زوجها لسنين سافرت مع عمري .

أكتب هذه السطور ، وإبنها الأول تخرج من دراسته العليا وتزوج .

والسؤال :

الآن .. بعد كل هذا السفر الطويل .. أين هي من وجداني ذاك ؟

بالبديهة : اختلفت المقاييس ، وتغيرت تلك الحيرة التي لم يكن لها جواب وقامت الدنيا وقعدت مرارا ، وانهزمت رقبة الديك تلك



www.ibtesamh.com/vb

التي كانت مزروعة بين كتفي ، و لم يبق غير صورة فاقعة في الذاكرة ، لا يمكن للنبض أن يرتج حين استعرضها ، ولكن ..ما هي الضرورة التي دفعت بفلان هذا إلى استذكار حادثة صبيانية، بقي للرياح على خوانها مسحا كطيف السحاب ؟ الحاجة التي لا يمكن القناعة بمجرد الحصول عليها .. حاجة مطلقة تستمر باستمرار الحياة ، وقل :إنها تتجدد مثلما تتجدد خلاياه ، مثلما تتجدد طموحاته وأمانيه ، وتتجدد مع محطات عمره ، وتطور مفاهيمه ،وتغير نظرته للحياة ،فيغدو يضع خيالات لأشخاص كاملين، غير موجودين في حياته .

إنها لا يمكن أن تقف عند محطة ، تقف فيها قناعته النهائية ، إذا لو كان كذلك ، لعني ذلك له، انتهاء الحياة أو بالتحديد : الموت، فالموت يعني انتهاء كل الأشياء بمعنى أنه لا يمكن العيش دون تحقيق ما يريده الحلم .. الشيء المتجدد الذي لا يجمد عند درجة برودة عالية .

لو أننا صهرنا حاجتنا إلى المرأة ، أو حاجتها إلى الرجل.. داخل هذا القانون ، ستجد أنه أحد تفريعات الواجب الحتمي والضروري ، الذي لا يقبل الاستغناء . إنه الحلم المتجدد ، العالم الرحب المعجون بالأمل وبالجمال وبالاسترخاء . عندها فقط .. يمكننا أن نزفر زفرة العذاب الجميل ، الذي ينبت من صدورنا، متجهين نحو الحصول عليه .



www.ibtesamh.com/vb

لقد صنعنا -كرجل- من المرأة حلما ، لا نرغب في اقتناء الوصول إليه ، لأننا سنقول دائما : أين هي ؟ ونحن نجدها، ونتأملها مثلما نتأمل وجوه أمهاتنا ، ومع ذلك نبحث عنها، ونغمض أعيننا .

ليس هناك شيئا عجيبا ، ولا سرابا لا نستطيع إطفاء ظمأنا به .

المسألة بتلخيص شديد ..هي حاجتنا إلى تنفيذ استهلاكي متجدد .. قل : الحاجة الإنسانية ، التي يهز قلقها الواقع الاجتماعي ، والذي هو بدوره ،ذاك القلق الرابض في دواخلنا كأفراد .

* * *

المرأة الحلم .. أمر ضروري في سمو حياتنا ، وطبيعة بيولوجية يحكمها قانون الحياة .. إننا لا نستطيع الاستغناء عنه ، ولن يحدث ذلك أبدا ، إذا حدث كان معناه كسر قانون الحياة .

عندما يتشوه ذلك الحلم .. حيث تحب امرأة لسر لست تعلمه، وتغني مسراتك ونمنمات خواطرك بمعنى السعي وراء اكتشاف غوامضها ، ثم لا تلبث أن تلمس فيها شيئا جديدا لا يعجبك .. بل يدعوك لأن تقف طويلا ، وتعود إلى الخلف ، مدعيا أنها لم تعد



www.ibtesamh.com/vb

تصلح لك . ذلك يعني البحث عن مرادف آخر ، اسمه المرأة الحلم.. وهكذا .

من المؤسف أننا بتشوهاتنا الاجتماعية ، وترسباتنا التي لا يمكننا بسهولة ، نزعها من صدورنا .. نظل ننظر إلى الأمر نظرة عنصرية، وفي ذات الحال : مصدر لذة .. لذة شعور ، أو غريزة، أو أي شيء آخر ، وبمقتضىً وراثي تربوي اسمه ( الامتلاك ) .

فوق كل هذا – مثلما يحدث في واقعنا – فإننا نرتج عليها الأبواب ، ونمنع عنها الهواء باسم المحافظة والغيرة ، ثم نبقى نتغزل بها .. أعني بذلك السراب الذي لا يمكن له أن يطفئ ظمأ الظامئ إذ ظمئ .

شيء آخر أريد أن أتحدث عنه .. ذلك هو : نوعية التشكل الوجداني ، الذي تقوم عليه منطلقات العلاقة بالمرأة .

فذاك الصبي لا يلبث أن يصبح رجلاً ، وتتحدد فقرات المفهوم النزقي الحالم لها ، وتصبح الأشياء تأخذ شكلاً جديداً ،غرزة محفوفة بالجمال والأمل والسعادة الدفينة . تلك السعادة الحلم، وهنا أتذكر مقولة الكاتب النمسوي الشاب " كافكا " " لا أكون واثقاً مبدعاً شجاعاً .. إلا حين أكون وحيداً ، آه لو أستطيع ذلك أمام الناس بفضل امرأة "

نعم ..



www.ibtesamh.com/vb

إنه يراها حلمه الجميل والقوي ، ومعبره الناجح الواثق للوصول إلى الآخرين ، والوصول الشجاع الذي يمثله بحقيقته وصفاته ورونق إبداعاته ، غير أنه لو وجد حلمه ذاك ، الذي توهم كل مكتسبات أمانيه ، وطاقاته الإبداعية والإنسانية .. لو وجده بالصورة المرضية .. فإنه لا ريب لن يعيش حلمه وأمنيته الجميلة ، وستصبح طموحاته الإبداعية ، وقواه الواثقة تلك تنكسر عند حدود اكتشافه لها، وستغدو كثيرا من القرى الخضراء المزهرة ، بلون بنفسجي واحد ، لا يلبث أن يتحول إلى الجوهر الغربي .. الصعود إلى لذة الحلم المطاردة بالأماني .

ليس من الحق في القانون الطبيعي للحياة ، أن يبقى متغيرا، وليس هناك معجزة غامضة اسمها "المرأة " هناك وهم ربما كان ضروريا للاستمرار ، والبحث ،لقطع مسيرة الإبداع الحقيقي، المغلف بالحلم والمتعة . كذلك كنت أجعلها .. وانتظر قدومها من الأشجار والجبال والصحاري ومن الشوارع ومن ريشة الرسم، وحبر القلم ، من كل شيء .

وعندما تبلغ فتافيت الزمن نهاية الانتظار ،فإن الحالة المؤطرة بجفاف الانتظار ، تتحول إلى عدوانية خفية ناقمة على كل تقليديات الواقع ، وبراويز الإخفاء المعتمة .

لنقل مثلا ، أن الرغبة المبهمة أخذت صورة الحبيبة للوطن، وراحت كالسفر في حدائق الإبداع . إننا حينها سنجد إبداعنا



www.ibtesamh.com/vb

يتزين - كما نرى - بصنوف زاهية من الألم والطموح والمباغتات المستجدة .

فمن الدوافع المختفية الجميلة في سيران الإبداع ، هو وجود ذلك الحلم السرابي الملون . إنك حين تهتم بحلاقة ذقنك - مثلا - وباختيار ربطة عنقك بعناية ، وتحاول تصليح بعض تفاصيل عاداتك، التي لا ترضى عنها ، أو تريد أن تبدو بها بصورة أكثر إرضاء .. في وقت سترى فيه امرأة ، لها بخاطرك مقام ، فهذا يعني أنك ستقابل شخصا يهمك في قرارة ذاتك ، إلى حدود أنك رحت تتصابى وتعدل من عادات مظهرك . لماذا ؟

لأنك ترغب في حقن وجدانك بحلم عذب تتصوره ، ترى أنك تحقق عذوبة وإرضاء ذاتك من خلال ما يمكن إظهاره في هيئتك .

القضية - هنا - ليست قضية عابرة ، إنها تحتاج إلى نظر ، إذ أن الحالة ذاتها موجودة عند المرأة كذلك ، ولربما بمقياس أعلى .

* * *

نعود إلى الدافع الإبداعي فنقول :



www.ibtesamh.com/vb

إن من إيجابيات الحلم ، وضروريات إبقائه غريبا وغامضا.. السعي وراء القبض عليه . أما حين يتم اليقين في العثور عليه ، فإن الصورة تأخذ أحد الطريقين ، باختلاف التكوين والمفهوم ، حيث يتفتق الإبداع نحو آفاق أكثر روعة وعطاء ، أو أنها تفقد دفعتها وقوة عطاءها . أعتقد أنني أحد الذين لا يستطيعون الإبداع في غياب المرأة من خاطري . لا أتحدث – هنا – عن الذهنية الإبداعية المرتبطة بماهية المتلقي .. لا ، إنما أتحدث أولا عن الدافع الإبداعي ، أو أحد الأحلام اليانعة الضرورية في الإبداع وثانيا تصوره كتملقي .

يقولون : " وراء كل رجل عظيم امرأة "هذه المقولة التي تبدو لنا تقليدية ، ونأخذها بمعناها المفضوح .. لم تأت من فراغ ، إنها ترتبط بذلك الحلم اللذيذ ، الذي تصبو إلى اقتناصه ،و"العظمة " ليس المراد بها تحقيق المكاسب الحياتية... وإنما الدوافع الحثيثة نحو تحقيق النجاح ، والشيء المهم هو عدم اشتراط وجودها ، وإنما من الجائز الضروري الركض وراء القبض عليها ،ودون تحديد معين أحيانا .

لا أستطيع الخوض في تفاصيل الدوافع النفسية والبيولوجية للإنسان ، إنما أتحدث من زاوية التقاط واحدة ، هي علاقة المرأة بالإبداع من مكان وقوفي الخاص .



www.ibtesamh.com/vb

وهنا سأتجاوز الكثير من محطات العلاقة بها ، وأقف عند محطة التجربة التي كانت خاتمتها الارتباط الشرعي اليومي ، والتي انتهت بعد فشل طويل ومملٍ في ذرات الليل والنهار وكانت النهاية الغامضة آخر مطافها .

فأنا لا أجدني مبدعا واثقا إلا في غياب شريكتي و لا أجدني قادرا على تصفية دواخلي أمام حضورها .

بالطبع هذا ليس قانونا ، فالحالات تختلف باختلاف المبدعين وباختلاف تفريعات أخرى ، ليس مأن السهل حصرها والخوض فيها .

أذكر كلاما قاله " هنري ميللر " حول هذه المسألة .. فقد اضطر إلى الانفصال عن أم أطفاله ، لأسباب هي بالتحديد من أجل الكتابة، على حين أنه جعل من أحد زوجات عمره ، ملهما لا ينسى فضله . هكذا تغدو الأمور ، وهكذا يغدو الحلم الجميل أحيانا بعد معرفته بأشياء يتمنى المرء لو أنه لم يكن ليتعرف إليه .

إن الإحساس بالمحاصرة القائمة على الواجب هي أحد الأسباب إلى جانب غياب احترام ومعرفة معنى انهماك الزوج ، في انقطاعه عن أي شاغل آخر .. انقطاعه نحو الإبداع .

تذكر أنك حين تكون عطشا إلى حد الهيام إلى الماء ، وكنت بعد جهد تقرطع ماء كأس بارد ، ثم تمتد يد فتنتزعه من يدك .. كيف ستكون ؟



www.ibtesamh.com/vb

في غابة الكتابة .. تدخل المرأة كأحد الخصائص الرئيسية الواضحة ، نحو إبداع حميمي / موصوف بالعذوبة والأريج ، المرأة الحلم – كما سبق – وهنا يجدر بي أن أقول : إن إبداعاتي ترتكز على هذه الخاصية ، ارتكازا يكاد يكون كاللازم ، لا أعني أنها تستوطن الخاطر كانشغال .. بل أعني ضمنا ، ذلك الجمال العظيم، الملفوف بالعذوبة والحميمية الإنسانية ، التي تأتي على هيئة حلم، تسعى الرونقات الإبداعية نحو اعتباره المحرك اللذيذ ، للوصول بإبداع أكثر جمالا ورضى .

غير أن ذلك الحلم ، الذي يركض الفنان وراءه ، ثم لا يلبث أن يبحث عن حلم جديد آخر .. يبقى له شروط ، كلها تتطلب الكمال ، وما هو بعده ، فأنا اشترط في حلمي– مثلا – أن يكون الجمال الجسدي ، شرطا أوليا ، أو قل إن الجمال المباشر ، يكاد يكون المفتاح ، والمدخل إلى الشروط الآتية ، وأهمها : ألا تكون سخيفة ، فأنت لا تستطيع ككاتب أنت تقرأ قصيدتك أو قصتك، على تمثال مرمري لا يعرف يمينه من يساره ، ولا يمكنك لحظتها أن تقابل بذلك التمثال ، يحدثك عن آخر الأزياء أو عن طبخة الملوخية .. وقتها تحتاج إلى وجود الحلم المستوعب . لا أريد رشوة كلامية ، أو مكافأة بالتظليل مثل :



www.ibtesamh.com/vb

" جميل .. جميل ، ممتاز ، يا سلام " ، وهي في الآخر مجرد كلمات استهلاكية ، التقطت من الأفواه ، وأنت تعلم مقدار تأثيرها ، أو قل مقدار عفويتها وغبائها .

هنا تسقط أحد خصائص الحلم الضروري ، بالتالي فإنك - على مستوى الحلم الإبداعي - تظل تحلم بحلم آخر ربما لن يتحقق ، يكون دافعاً في ذات الوقت ، لإنجاز متكأً وسنداً وطريقاً لإبداعات جديدة .

قلت ، إن المرأة الحلم ، ليست أحد الأجوبة الكاملة على سؤال مثل : لمن تكتب ؟ أنا هنا أتحدث عن وجودها كحلم ، و كمحرك جميل نحو إبداع أكثر زهاءً .

قل مثلاً ، أنك قابلت امرأة ، فحققت لك أحد شروط الحلم اللذيذ ، و لم تكملها ، لكنك تقيم أثناء تشكيلك الإبداعي معها حواراً طويلاً ولذيذاً دون الحرص على إقامة معرفة ، إنك تخاف أن يتقوض الحلم فيتهاوى تاركاً أنقاضه في دواخلك .. تصبح بعدها صفر البال ، والدافع .

عندها تقف أمام تساؤل يتكرر :

لماذا ترتبط المرأة بالمبدعين ؟ فإننا دون شك ،سنرجع الأمر إلى نقطة البداية - الحلم - الضرورة ، فهي أيضاً تشكل مصدراً أساسياً



www.ibtesamh.com/vb

في حياة الآخرين ، الفرق هنا هو أن المبدعين يظهرون في إبداعاتهم، ويزوقونه حسب أمانيهم وأحلامهم .

لست ممن يكاشفون إبداعاتهم بلقاء امرأة جديدة ، و لم أعهدني في يوم كذلك ، فهي ليست قطعة حلوى ، ولا زجاجة عطر في أي صورة ما شئت ألقاها .. لا ، فحلمي بها لا يتعدى كون حقيقة، لكنها حقيقة مؤجلة التحقيق ، وذلك لضرورة نزق الإبداع الضروري أيضاً .

شيء آخر جدير بالملاحظة . ذلك هو عنصر الجمال ، الذي يجري وراء اكتشافه ورصده الفنان ، فالجمال أحد خصائص الإبداع الضرورية لإرساء المفهوم الفني ، وشرطاً لا يمكن العمل للعمل الإبداعي التخلي عنه ، ليس لأنه مبعث انفتاح وسعادة فقط ، بل لأنه أيضاً جواب لأحد إشكاليات الاستمرار المبهم في العطاء الفني .

وهنا قياساً بفعل التأثير الجمالي ، تضع يدنا على وجود الجمال الآدمي للمرأة في العمل الكتابي .

علينا أن نطلق سنابل أقلامنا في حقول الجمال ، دون تحديد لأهداف غاياتنا ، إذ لو فعلنا ذلك، لأصبحنا قادرين على ابتكار اكتشافات جديدة في المعلومة الإنسانية لمفهوم الجمال الضروري في خلق العمل الإبداعي .



www.ibtesamh.com/vb

إننا لا نجرؤ بأي حال ، على إطلاق صفة الغباء ، أو العَتَه على عظيم مثل " تشيكوف" فقد كان يلبس كامل زينته ، ويخرج من الدار ، إلى بائعة خردوات فلاحة في الشارع المقابل ،ليملأ نظره ويشتري شيئاً لا يحتاجه ، يعود ليسطر أقوى وأجمل ما كتبه ناسخو القصة في التاريخ البشري .

هنا ..هنا فقط ، يكمن السر وراء اكتمال الثقة والمحبة والجمال.. القبض على الحلم ، والركض خلف التجدد ، دون الإيغال في تفاصيل المنطلقات والدوافع ، لإجراء موازين خلق الإبداع الكتابي الإنساني المتجدد بتجدد القرون والظرف الإنساني المتطور .

وعندما نجد "فان جوخ" يقطع أذنه ، ويقدمها لحبيبته ، فإننا لن نتعامل مع الحادثة بمنظور الرغبة الولهى لإثبات نية الحب ، الحاجة المغلّفة التي لا يمكن لرحابة الحياة أن تمضي بدونها .. فذلك أمر يبدو في سطحيته مربوطاً بالخنوع العاجز ، إذا أن هذا الشكل التعبيري المبالغ .. له دوافع أخرى يهمنا فيها الجانب الإبداعي ، أي النتيجة الإبداعية غير المنفصلة عن الدوافع والمسببات الأخرى .

ليس السبب فقط لأنه يحبها حباً جنونياً ، ولا لأنها كانت في اتجاه لا يلتقي مع اتجاهه الرومانسي المخلص من جانب واحد ، ولا لأنه كما يرى البعض لسبب يكمن في اختلال توازنه العقلي ، وإلصاقه بالجنون .. إن الأمر يحتاج إلى كشف ضرورة أساسية اسمها : تهدّم



www.ibtesamh.com/vb

الحلم .. لقد قوضت حلمه الجميل ، ودافع الإبداع السري الذي كان به يتجول في هموم الآخرين وأحلامهم .

فهل نعتبر لوحة " رجل البريد " مثلاً .. نتاجاً جزئياً ؟ ، وهل كانت هذه اللوحة تعكس أدنى مؤشر من حبيبته ؟ .

لا .. ولكن كانت في نسغ أعماله ، وداخل تكوينات اللون والخط والحركة .. هناك في الدافع .. المحرك الذي يدفع بكوامن الرؤية إلى النتاج الإبداعي العظيم .

ولسنا في مجال التحدث عن العتمه الفنية لها ، أو حتى التاريخية، غير أن المهمة السرية ، التي لا تبدو مكشوفة في الحلم .. الحلم الغريق الذي إن أنقذ ، فقد وصل إلى الـبر ، ومنه إلى مكان التأمل والاكتشاف .. أي فقدانه كقيمة سرية غامضة ولذيذة .

بالطبع .. لم يكن فناناً ليدرك أن امتلاك الحلم ، يعني كساد جوهره في داخل النفس الملتهبة إليه ، ولا تعتقد أنه كان يشغل خواطره النقية بهذه التفصيلات .. فلو كان كذلك لأختار طريقاً آخر غير الذي أودى به إلى مصحة الأمراض العقلية .. فالمحيط لا يجد تفسيراً واعياً لفهم ملابسات الحادثة ، مع أنه كان يصاحب الريشة واللون وهو في عقر المصحة ، ويبدع أجمل جمال .

وحين تكون جواهر الأحلام معروفة ، أو شبه واضحة ومتمسكة بإعراضها ، أو نفورها .. تبقى قيمتها عند الباحث عنها عالية ، ويزداد مؤشر الانفصال ارتفاعاً ، وتصدر عنه ممارسات تخرج



www.ibtesamh.com/vb

عن العرف الاجتماعي ، وربما لا نستطيع أن نعتبرها –خارج القانون الطبيعي البيولوجي للفرد– غير أليفة ..ليس بالضرورة أن تكون غير صحيحة ، أو غير متلائمة مع قوانين الحياة المكتشفة ..بل ربما على النقيض من هذا ، لعلها كسر لتلك القوانين ، بإقامة قوانين جديدة بحكم الحاجة والضرورة ، والتلقائية الطبيعية عند إظهارها .

إن مما يثبت نفور الحلم اللذيذ –الحبيبة – في هذه الحادثة ..رد فعلها البارد ، حين يتملكها الضحك وهي تنظر إلى قطعة من لحمة.. تقدم إليها هدية . فهو لم يجد شيئاً يعبر عن صدق ولهه بها غير هذه الشريحة المأخوذة من أحد قنوات المعرفة الحاسة عند الإنسان : الأذن .

وإذا كانت هذه الحادثة ، قد أكدت لدى المحيط الخارجي شرعية الاختلال العقلي .. فكيف لو أنه جدع أنفه ، أو اختلع إحدى عينيه ؟!

لا شيء هناك أغلى من المشاعر النقية ، ولا شيء أقدر من التعبير الإبداعي والذهني عند الإنسان ، ومع ذلك .. لم يجد " فان جوخ " أن هذه الوسائل قادرة على التعبير والانتقام من الذات ، إلا قطع أذنه .

إذاً فحلم المرأة الضروري لدى المبدع ، يكون غالياً ، ويكون لذيذاً وجباراً .



www.ibtesamh.com/vb

وإذا كنا نأخذ هذا التفسير بمقياس نصفي عنصري ، فهذا لا يعني قناعتنا بتجزئة الإنسان .. بل نتيجة لمعرفتنا المحدودة بنصفه المتغرب .

ربما كان هذا المفهوم مغلوطاً في بعض تفاصيله .. ففي قانون الطبيعة نرى أشياء مخالفة ، أبسط بديهياتها " الطاووس " و"الأسد " ومن جانب آخر " ملكة النحل " التي تعمل كل جيوش الخلية لخدمتها .. بينما يسمى عند المفهوم الاجتماعي بـ " اليعسوب " وهو اسم مذكر بحكم التقليد في تميز النصف الذكري .

إذاً فالحلم هنا .. ليس قاصراً بالكاتب ، أو المبدع الرجل إذ لو نظرنا بهذا المنظار لا عتبرنا أنفسنا متجنين إلى حد القشورية .

وعلى أي حال .. فلا نريد أن نتقمص ألوان الحلم الزاهية عند المرأة ، ولا الخوض فيه لاعتبارات أهمها المعطى ، ولظروف اجتماعية أخرى ، لكن الذي يهمنا – هنا – جذب الحلم الضرورة، عند الكاتب والمبدع ، وشكل ذلك الحلم الجميل، المنعكس على نتاجه .

والآن ...

أي حلم الذي نخوض فيه ، وهل هو حلم فعلاً ، ولماذا ! اختيارنا لـ : " الحلم " يعني بالبديهة – في هذا الشأن – الشيء الحي الجميل، المؤطر بالتغريب البعيد عن المنال ، أو المنطقة الفائحة بأريج



www.ibtesamh.com/vb

الزهور الغامضة .. التي يفترض أن تكون بألوان جديـــــدة ، وشـــذا خفي، ومعطيات قد لا يكون الكاتب قد تلمسها من قبل ، ويرغـــب أن تكون مخالفة للمألوف ، أو أعظم من الحاصل المعروف في الحياة.. المثال الكامل ، الموصوف بأفانين المسك والكحل ، وقطر الماء الهـــلبط على جفاف الأرض ،كل ما يمكن وصفه بالأوصـــــاف الســـــامية البالغة ذروة اللذة الجمالية ، وبالتحديد بقياس المطلب : ذلك الـــذي يعبئ فراغات احتياجنا ، ولهـــنا ومثلنا الذي نبحـــث عنـــه علـــى الـــدوام فلا نعثر عليه - وبالطبع يبقى هكذا - الغصن العالي المزهـــر المثمر الصعب المنال ، الذي لا يمكن لشيء آخر .. دافع وســـري ، غيره أن يعمر الخيال ، الخيال ذو الجذور الضاربة في الواقع المعيـــش ، و المختلف باختلاف الحاجة إليه ، و حجم الزمن والمسافة الواصـــلان إليه .

أؤكد شيئا مهما ، غياب المرأة في الواقع المعـــــاش ، أو الغيـــاب النسبي قياسا بالموضع الاجتماعي ، ومـــدى تقليديتـــه ومحظوراتـــه، وأشياء أخرى بديهي ذكرها .. وهذا الغياب النسبي .. يجعـــل مـــن الحلم نسبيا ، ليس باختلاف الحالم والمحلوم به فقط .. بـــل بمقـــدار الحاجة وضرورتها ، ومدى القرب والبعد عنها . - هنا- لا نقيســـها من زاوية التركيب الاجتماعي وموقعها منه ، إلا في إطار اللمســـــة الخفيفة التي لابد من التعرض لها داخل النهر الكتابي الإبداعـــي . أي أن ما يهمنا ليس فقدانها كعنصر احتياجي مكتمل .. فـــهذا يمكـــن



www.ibtesamh.com/vb

الحصول عليه ، وحله حالاً لا يبلغ درجة المستحيل ..بل بمقياس "الحلم " الضروري لإقامة ميزان الاستمرار الموعود بالرحابة والفن والإشراق والتجاوز .

إن كثيراً من تلك الأحلام ، باختلاف أعمارها ، ومقدار زمنها في خاطري .. تكون نهاياتها دائماً ، وبشكل دقيق في نقاط محددة .. اسمها : الاكتشاف ، أو محصلة السعي ، أو نقطة القبض . وقد تكون انطفاءة الحلم في منطقة للأسف حيوانية جسدية ، مما جعل مع التجربة ..إعتبار هذا الفاصل في نظري سخيفاً أحياناً ، واعتبار الحلم اللذيذ ذاك .. مجرد ذريعة وهمية ، ورشوة اختلط فيها المعنى الجمالي لأفق الحلم ، بالرغبة البدوية المترسبة بتشوهاتها في الداخل .

فانتحار الحلم .. يكمن هنا في أحد منطق نهايته القصوى.. حتى وإن طالت تلك النهاية ، أو تجددت .. إلا أنها سرعان ما تكشف عن كينونتها الحتمية كنهاية اسمها تحول الحلم إلى قربان .. وبالطبع هذه نقطة من نقاط متعددة لاغتيال الحلم .

لقد حافظت على حلم جميل .. امتد عمره عشر سنوات ونيِّف، حرصاً على أن تكون مربوطاً إنسانياً فنياً عذباً ، وكان له أبلغ الدوافع ، وأجمل النتائج ، ولا أذكر لحظة أنني كشفت عنه حتى معه ، وكنت أتوازن حين أجد منه الإيضاح في الكشف من جانبه ، وأبدو منصرفاً ومتشاغلاً ، مع أنني معه بكل تفاصيل جوارحي .



www.ibtesamh.com/vb

وحيث أرى أن الحلم لا يمكن أن يكون كاملاً في مصدر واحد بعينه ، إلا إذا كان غير معروف لدى الحالم ، وبالتالي عدم واقعيته كمبدع ، يؤمن بالمحصلة العلمية في تصنيف الأشياء ، فإن المرام الحلمي – على هذا الصعيد – يدور على كوامن أخرى له في مناطق أخرى ، وهكذا .

وإذا كانت نهاية عمر الحلم ، قد تأتي على هيئة تلقائية فإنه ليس باختياري .. بل نتيجة لمسببات طبيعية في التكوين ، ولأسباب أخرى تستوجب أن تزاول فعلها ، للحفاظ على قانون الاستمرار الحياتي المتجدد أبداً لضرورة الحياة .. ذاك القانون الذي لا ينتهي إلا عند نهاية الكائن البشري ، عند نقطة الغياب الأبدي : الموت .

أما كونه حلماً ، ولماذا ..؟

فيما أنه غير سهل في القبض عليه ، وليس متوفراً ويحمل صفات المثال الصعب التحقيق ، ويدفع نحو المسرة ويحفز نحو الإبداع الأجمل ، جاذباً خلفه كوامن السر الصاعدة تجاه العمل الخلاق الراغب في التقدم إلى وهم الاكتمال .. فإنه لا ريب سيكون حلماً .

وهو كذلك .. لأن استمراريته مطلقة ، ليس لأنه لا يوجد ، بل لأن طبيعة المنقب عنه مشروطة بقانون الحياة المتجدد ، اللاهث وراء الاكتشاف ، والانشغال البيولوجي الضروري لإقامة المحافظة على توازن الحياة .



www.ibtesamh.com/vb

لم نأخذ الحلم بمنظور الأمنية ، ولا الهدف الذي يمكن البلوغ منه بعد تحقيق الخطوات الموكولة بالجهد والزمن لإرادة ، لا .. بل الحلم الذي يصعب تحقيقه .. الملتحم بالضرورة والكمال ، اللذين لا ينفصلان عن القيمة الممكنة المستهدفة ، ذاك العمق بالحس والجمال الدفين المبهم ، والذي تمثله المرأة في نظر النصف الآخر المنفصل، والساعي إلى الالتصاق به ، والقبض عليه لردم تلك الهوة، والتعرف على أسراره ، والذي لا يلبث أن ينتهي دوره كحلم مطارد بمجرد معرفة تفاصيله أو بعضها .

لذا كان من البديهي ، أن المعنى ليس المرأة الحاضرة في حياتنا، والتي تجعل من وجودها "موناليزا" صياغاتنا الرومانسية والجنسية، ولا تلك التي نقيم معها المودة الرخيصة لتلبية مطالب التشوه في دواخلنا، وليس من العدل أن نسبغ عليها صفات ليست فيها، ونتوهم أننا نفعل ذلك ، أو توهمنا ..لبعدها عنا ، ووقوف الحاجز الاجتماعي دون الظفر بها . وعليه كانت أغلب أهدافنا المؤطرة تلك والمحددة .. تفشل في ملاقاتها العاطفية ، وفي ارتباطاتها الرسمية بالذات ، وإذا بقيت فهي تبقى لاعتبارات أخرى إنسلنية واجتماعية واقتصادية، قائمة على التقليد في جميع هذه الأركان الثلاثة. وإذا كان ذلك الحلم يبدو للبعض في نظرنا .. أن فيه شيئا من المغالاة لأنه يتعلق بسبب أو خلل لفهمه وتعامله معه ، فهناك من يجعل الأمر قيد حدود معرفته المحدودة ، أو اللا محدودة بالمرأة ، من



www.ibtesamh.com/vb

خلال تعددهـــا في تجارب حياته ، واستأصل منظوره عبر النـــهايات السلبية ، أو الجارحـــــة ، أو العنيفـــة .. ليـــس هـــذا مقياســـنا، فالكـــاتب المبدع لا يعلق حلمه – المثال – علـــى هـــذه الشـــماعة الموجزة . إنه يركض إلى المطلق ..الكمـــال اللانهـــائي ، الرحـــب، المستوعب ، والقادر على تعبئة فراغات الطيف الملون العذب .

كنت أرى أن من الكوارث الحزينة في حياة المبدعين .. أن تلـــك المرأة المطلوبة ، والموجودة في إبداعاتهم غير موجـــودة ، وأن الواقـــع يشهد بذلك .. لا خلاف ، ولكنني لم أكن لأعثر على المبرر المقنـــع لعدم وجودها ! .

بالطبع ، ليست كائناً أسطورياً ، وحلمنا بمثلها العالي ، ليس نادر الحصول .. فطالما أنه " حلم " فهو لا يخرج عن إمكانية التصور الآتي من الواقع ، إنما شروط ذلك الحلم عند المبدع .. هي التي تريـــــده نادراً ، وغير متوفر ، وصفاته – حسب الحاجـــة والمثـــل – صعبـــة الوجود، ومن الندرة أن يعثر عليها .

بالتأكيد لو كانت الشروط بدون هذا التعجيز .. لفقـــد الحلـــم كونه حلماً .



www.ibtesamh.com/vb

www.ibtesamh.com/vb

# الكتـــــابـــــة و المـــــــرض



www.ibtesamh.com/vb

ترددت طويلاً قبل كتابة هذا الفصل ، بل تعبت في تأجيله وربما الإعراض عن تسجيله .. ذلك أن تجربتي البعيدة مع المرض، أصبحت أليفة وجزءاً طبيعياً في حياتي ، لذا فمن المسلم به ألا أذكرها للقارئ .

هذا من جانب ، ومن آخر .. فإنها مسألة قد لا تعني القارئ في شيء ، غير أن بادرة دفعت بي ، ترى أن الأمر لا يمكن عزله عن التجربة الشاملة – المرتبطة بالإبداع الكتابي – بل إنها تكاد تكون منظوراً تتم عبره الإطلالة بمفهوم أساسي لا يمكن فصله ، باعتباره



www.ibtesamh.com/vb

سارياً في تفاصيل كل جزئيات الحياة ، وعليه فإنني سأطرق فقط الحالات الصحية ، التي تلاحمت مع منطلق الحياة الإبداعية ، أي تلك التي تنفست بكامل صعوباتها مع الانجراف الكتابي الملّح .

إن لدى الكائن البشري قدرات خفية ، لا يكتشفها إلا عندما يحتاج إليها ، وليس من السهل أن يتنازل عن طاقاته المخبأة ، ولا أن يطيع قناعته المحدودة في إمكانيات القدرة .. لأنه سيعطل تلك الخفايا الجبارة التي لا تستسلم لكون الإنسان ذا أبعاد مقننه ومفروض بها التحجيم .. لو بقي كذلك لافترضنا أنه سريع الانطفاء ، وغير مؤهل لمواجهة صدمات الاختلال الطبيعي في ميزان الحياة ، الذي كان هو أحد ضحاياه .

وإذا ما قبلنا علمياً بمحدودية الإمكانات عند كل طاقة .. فإننا ربما وبعلمية أيضاً ، نحتاج إلى إعادة النظر حين نطبقها على الإنسان .

إنه لا يخضع كثيراً لبديهيات المقدرة ، وأظنه غير قادر .. ربما لو فعل لألغى شيئاً أساسياً في مشروع حياته ، هو الركض نحو الأفضل ، والجري بكل طاقاته إلى تحقيق الحلم والمستحيل .

ولذلك لم يكن الإنسان شكلاً خلقياً موصوفاً بتشريحات تختلف عن غيره من الكائنات فقط .. ولا هو أيضاً بالطاقة العضلية ، فغيره



www.ibtesamh.com/vb

أقوى ممن نجده في الكائنات الأخرى ، وفي إمكانات القوى العظيمة التي اخترعها بعقله ، ونفثات تفكيره .

الأمر ليس بمقياس " هضبة سيزيف " التي أرهقته صعوداً .. ربما كان إلى حد " كتلك التي نقضت غزلها " في انتظار الحبيب الذي ذهب إلى الحرب ، فهي تغزل وتنقض في انتظار بأمل كبير الذي يأتي وقد لا يأتي أبداً . الأمر لا يحتاج إلى استعضال ، ولا إلى قساوة لمعاندة القوى ، ولا إلى إعصار ليواجه الريح .

إنه فقط يحتاج إلى إدراك بأنه يختلف عن ضحالة قوانين الطبيعة المركبة ، وتنفيذ تشريعاتها ، فسعى نشاطه الذهني وراء اكتشاف قوانين جديدة خفيفة ، وتركيبها لتتلاءم مع حاجته ، هو المطلوب، وهو الذي يشغل الذهنية البشرية ، حتى ولو لم نتعرف على تفاصيل فلسفتها .. إنها متواجدة في نظامه الكينوني الطبيعي دون مزايدة ولا استدرار لها ، يحتاج إلى فهمها ، وإلى كيفية مناسبة للتخاطب معها .

ولكن الصعوبة ليست في الاكتشاف ..إنها تكمن في التطبيق .. التطبيق الذي لا يمكنه أن يحقق واجباته دون مناخ .. ففي المجتمعات التبعية والمتخلفة ، تبقى هذه النقطة بلا حرف ، وتأخذ شكل العجز والهامشية فتعطل فاعليتها وتحجم ذلك النشاط الذهني السامي أبداً نحو كل ما هو حلمي ومستحيل لذلك يظل إنسان تلك المجتمعات محدوداً ومقنناً وموظفاً لتأدية مطالب يكون فيها المستجيب



www.ibtesamh.com/vb

المنفـــذ لها . دون أن تكون له مبارزة ذهنيـــة ولا أن يكـــون لـــه فســـحة لتحقيق فيزيائية العقل .

لعل من تلك القدرات العجيبة أحيانا في البناء الإنساني مقدرتـــه على إقامة صداقة مع ظرف حتمي يفرض عليه دون اختيار ، فيذهب بقيم قناطره معه ، ليأمن استفحاله بـــه ، أو القضـــاء علـــى حبـــه للحيـــاة، ومزاولة حقه الطبيعي في التعامل معها مثل الآخرين .

فالمرض مثلا ، باعتباره خللا طبيعيا محترما وباعتباره أمـــرا غـــير اختياري ، ويخرج عن إطار الترحيب والقبول .. يظل يأخذ شـــكل المعاند المؤلم ، ويرتبط جذريا بمنظار الحياة في عين حامله .

وبالطبع ، فإنه يكسر كثيرا من خطوات تحقيق المشروع لحيـــاتي الطبيعي الشرعي للإنسان ، ويعمق مجاديفه في مياه العمـــر ، إذا مـــا كان مزمنا مستوطنا ، بل إنه في خطه البياني المتذبـــذب أحيانـــا .. يخضع صاحبه كثيرا إلى تغيير النظرة تجاه الأشياء ، ويدنو بـــه نحـــو تحديد العلاقة بها ، ومحاولة تصنيفها تصنيفا يجهد لتلمس جواهرهـــا باختصار ومعرفة منضبطة .

وإذا كان هذا الخلل الطبيعي الحتمي اللا اختياري ، قد يبســـط براثنه في مناخ لا مجال للهروب منه .. فإنـــه ســـيمضي في أحـــد مسارين :



www.ibtesamh.com/vb

إما الرفض والعناد والثورة ضد التقبل ، وبالتالي الهـــلاك وإمـــا نقيضه ، وبالتالي مصاحبته ، ومحاولة فهمه لكي يتم التكيف وخلـــق الانسجام ، والقناعة بأنه ليس معطلاً إلى حد إلغاء عظمة الإنســـان وقوته ، عليه فإن فهم الظرف الصحي المعمر .. يجب أن يكون لـــه نصيب كبير من العملية ، بل لا خلاف أن تكون العملية بكاملـــها، خاصة فيما يكون لـــه شأن بالتنفيذ الفردي ، وذلك أمر يحتـــاج إلى المحاسبة الدقيقة ، والجدولة المرتبة للوصول إلى تحقيق الهدف الصحـــي الممكن ، ولو بقدر الحاجة إليه ، وفي حدود ما يمكن دون الإحساس بالنقص أو التشكيك في المقدرة .

أما على صعيد أضلاع الصحة الثلاثة لتكوين مفـــهوم الصحـــة الكاملة ، وهي البدنية كما أسلفت ، والنفسية والاجتماعية ..فأنهـــا تتضافر ولا يمكن تجزئتها ، وحين يبقى علـــى حاملـــها عـــاملا " النفســـية والاجتماعية " فإنه سيصعد تلقائيـــاً إلى محاولـــة التـــأقلم النفسي ، لكنه سيجد صعوبة في التلاؤم الاجتماعي ، ولعله أمـــر لا يعيره أخصائيو الصحة بالاً ، ذلك أنه يحتـــاج إلى روافـــد أساســـية خارجة عن مقدرة العلاج الطبي فالعلاجات الاجتماعية أمـــر لـــه معالجوه ، ولكن يحكم الإيقاع الحياتي للمجتمع ونظرته التقليديـــة إلى قليل العافية .. يمكن لمن صودرت منه – بمقياس الظرف الحتمـــي – أن يعتبر ذلك منهم قصوراً في فهم خلل القوانين الطبيعية القاسية علـــى الإنسان ، وبالتالي فلا اكتراث .



www.ibtesamh.com/vb

إن هذا الإخلال الذي خالف الوضع الطبيعي ، واستلب من المريض شرعية العافية ، قد يبدو للبعض أنه نوع من الإجحاف، وتطاول على أحقيته في العافية ، وقد يبدو بهذا المنظار محاسبته محاسبة المنظم والمنكوب ، وانتزاع سؤال يردد بسطحية عما جعل المرض يختاره هو !.

وبالطبع فالأمر لا يقاس بهذا المفهوم .. بل يقاس باعتباره نوعاً من التوازن الطبيعي الضروري والمحتوم في حياة الكائن البشري .

فالآلام ضرورة حتى وإن كانت مرفوضة ، وكذلك الجوع والشبع ، والحزن والفرح ، وكل القدريات المتضادة ، تظل فاصلة توازنية في حياة البشرية ، وهي ذاتها الصراع الأبدي لاستمرار الحياة ، ومطلباً يتوافق مع البناء البيولوجي للإنسان .

وعلى أي حال .. فالمرض لا يمكن نفيه عن قانون الحياة الطبيعي ، باعتباره مخالفاً كاملاً .. فوظيفة الكائن البشري اكتشاف تلك القوانين ، ومحاولة التوازن بين تناقضاتها ، لتصب أخيراً في نهر سعادته وصحته الكاملة .

إننا لا نستطيع بأي حال إقامة حدٍّ قدريٍّ بيننا وبين ما سوف يحدث لنا ، لأن المسألة في القانون العلمي ، تحتاج إلى قدر أكبر مما وصلنا إليه كعقول نشطة ، لوضع مبرراتنا الجزئية ، البالغة في قضاء المطلق ، وتلك صفة لا تقدر عليها - على الأقل حتى الآن - ومنها



www.ibtesamh.com/vb

أمر ما يتعلق بالظروف الصحية ، والتي قد لا يجد التقدم الطبي اليوم جواباً .

لذا فالمسألة خارجة عن الرضى أو عدم القبول ، وحلها في مثل هذه الحال .. السعي وراء التفاهم معها بلغة يسيرة ، لكي يمكن ترويضها .

عندما بدأت رحلتي الطويلة مع المرض .. كانت مرحلة لم أتمكن بعد فيها من القدرة على استيعاب المصاب لسببين : أولهما الخبرة المرتبطة بالسن ، وثانيهما نقص الوعي الصحي ، وبالذات في جانبي النفسية والاجتماعية .

وكانت تلك المرحلة هي أصعب المراحل التي تصارعت معها للبقاء بعناد .. عناد بديهي تلقائي ، ممزوج بالاستهتار أحياناً، وبالتطلع نحو المجازفة ، بمفهوم عدم الرضى وعدم التقبل .. من أجل شيء لم يكن متناسباً مع بداية سن المراهقة ، ومع الدماء الفائرة في أول الشباب .

لم أكن قد بلغت الدرجة الواعية لفهم الكتابة والإبداع، ولكنني أتعلق بكل ما هو متعلق بالإبداع كالرسم ، ومحاولة صنع آلة موسيقية مبسطة ، وقراءة كل ما يقع في اليد من المطبوعات .



www.ibtesamh.com/vb

ثم ما لبثت هذه المحبة أن نمت ، وأصبحت كالطلع النضيد، ومعها نمت مفاهيم جديدة، تطورت مع تقدم العمر ، واكتشاف الحياة يوماً إثر يوم .

لم أشغل خاطري إلا نادراً بحالتي الصحية ، وتآلفت مع وضعي الذي كنت فيه قادراً على الحركة والعمل والسفر والقراءة وقيادة السيارة ، وكنت أجد لذة في السكن وحيداً بعيداً عن قناة اتصال بالخارج ، فلا أعتمد على أجهزة الهواتف ، ولا على تحديد مزارات الآخرين أو العكس ، كانت انقطاعتي تلك .. بعد خروجي من العمل، أفنيها بكامل ثوانيها في الرسم والكتابة ، وكنت مهملاً إلى حد الخجل في مسائل الغذاء والنوم ، ولم أكن مقصراً في شئون الحياة الأخرى .

ويبدو أن الإحساس العميق بالغربة .. صعد التشبث بالانعزال، على عكس ما كان يجب أن يكون ، وبالتالي فقد كان للكتابة معنى آخر يتسم بالضرورة ، لأنها كانت المنفذ الحميمي الخالص ، الذي يعزيني في غربتي الشخصية والاجتماعية .

لذلك حسبتني جزءاً ملتحماً بالورقة والقلم ، وكانت غرفتي محتشدة بالكتب والمجلات ونشارات الأوراق ، وبعض أشرطة والموسيقى . لم أكن لأطمح في أن أكون كاتباً له شأن ، ولم أتعب نتاجاتي بهذا المقصد .. بل كانت الأمور تسير نفسها في أغلب الأحيان .



www.ibtesamh.com/vb

ظرفي الصحي الصديق .. كنت أرسم للوقت مخططاً شبه مدروس ، أضع في أدراجه قوالب العلاج والغذاء والنوم .

وحدث ذلك بعد سن الخامسة والعشرين تقريباً ، عندما رأيت أن مضاعفات المرض تكاد تفتك بابتهاجي وحميمتي مع أقلامي ودفاتري ، حيث بدأت بأعز ضرورة مع هذه الحميمية : العينين . كنت مصراً على عدم الاعتراف بالعجز ، ومعانداً في فهم الطارئ القاسي ، واستمرت الرغبة في قيادة السيارة، إلى أن تعرضت في حالات لا تنسى للموت ، و لم أكن لأحصل على رخصة للقيادة لرفض الطبيب .

فقد كنت أؤمن بقوة خفية تتجدد معي كلما أردت .. خارجة من أوصاف الأطباء المباشرة ، فهم يتعاملون مع المعطيات المختبرية والتشخيص ( الإكلينيكي ) و لم يكونوا يقيمون لأي شأن آخر أي التفاته . لذلك .. لم أكن أجد في علاجاتهم علاجاً نهائياً .. بل ولا حتى مناسباً ، وكنت حين تفرض على حالتي ضرورة البقاء في المستشفى .. اختلق شتى الحيل للخروج ، وحدث مراراً أن تحايلت على الممرضات وعلى مسئولي الرقابة في العنابر والبوابات.. ووليت هارباً ، حتى أن بعض المستشفيات هددتني بالبوليس، وبعضها استخدمت هذا التهديد بالتنفيذ . وبقيت تحيا معي عقدة المستشفيات ، التي تمنيت ذات حال أن أكون سجيناً ولا أكون منوماً في مستشفى .



www.ibtesamh.com/vb

لقد كنت أصطحب أوراقي وبعض الكتب معي ، قبل أن أهيئ بيجامة السرير .

لم أكن أبدا ألقى أدنى مراعاة من طاقم مسئولي العنابر ، أو الأطباء في هذا الشأن .. كانوا يتعاملون معي كجسد على السرير الأبيض فما ألبث أن أنفرط في الحزن ، رغبة في العزلة للقراءة والكتابة .. ثم أدور عن منفذ للهرب .

كنت أصاب برغبة مضنية في التعبير ، ليس عن حالتي ..بل عن الحياة بكامل تشوهاتها وصفاء عذوبتها ، وتظفر تلك الرغبة عندما أجدني في صباح مستشفى على السرير كالمقيد .. فأعجب من هذا التزامن الغريب . إنك لا تستطيع دائما أن تطرح مبررات الهروب من كثير من الأمور في حياتك ، ولا تقدر على مقاومة تلك الدوافع الخفية عندما تجمع بك الرغبة نحو تحقيقها ، ومع هذا فإنك تعلم علم اليقين .. أنك تضع قدمك في الهلاك ! نحن مطالبون أحيانا بالإعراض عن تلك المفاسد ، التي تحطم أحلامنا ، وهدم مسراتنا الصغيرة ، حتى على حساب أغلى الأشياء : صحتنا .

ربما كان ذلك "ضرورة " وربما كان أيضا مطلبا ، لكننا إذا أردنا له أن يمارس شرعيته ، فعلينا بإيجاد التوازن على قدر ما يمكننا .

أمر في غاية القمع ..أن نقولب أحلامنا ، أو نحدها بأطر من المعرفة الجاهزة في حالات صحية خارجة عن إمكانية التآلف أحيانا.. تعرضت لحالات متكررة من الغيبوبة ، الغيبوبة الكاملة تلك التي



www.ibtesamh.com/vb

ترمي بالوعي الذهني خارج الزمن ، وأقول الزمن .. لأنه السؤال المحيّر، الذي شغلني طويلاً ، وراح يؤرقني بتصانيف عجيبة في معرفة قوانينه والإحساس به .

فعندما أتذكر كالحلم آخر ومضة زمنية كنت فيها في مرحلة ما قبل فقدان الوعي .. تنطفئ بعدها أبداً أحاسيس فعل الزمن، وتأخذ شكل الغياب بالمبهم ، ولا أعرف ما حدث في ذلك الفراغ الوقتي ، الذي كان خارج إحساسي بالزمن .. إلا بواسطة من نقلني إلى طوارئ الإنعاش .

إن فعل الزمن هنا قد توقف توقفاً كاملاً ، وبقيت أجهزة البدن الأخرى تعمل معه بكامل وظائفها تقريباً ..بقي كل شيء خارج الوعي الذي يكمن في قبة الرأس .. نشطاً ودائراً في فلكه .. كل حركة في الخارج لم تتصنع لتوقف الزمن عندي ، وبالتالي فإن الاستشعار النهائي المدرك ، الذي أدخلته الغيبوبة في دهليز لا زمان له.. كان خالياً من كل مؤثر ، وجامداً كالفولاذ البارد .

لذا تبدأ الأسئلة الدقيقة بداعي الاستيقاظ مباشرة ، تتوارد في صمت كقطيع من الطيور البعيدة المحلقة التي لا تسمع حركتها .. تبدأ في إطار من التنبه الجديد ، بنفس جديد ، وتلمس جديد، وحساسية رقيقة جديدة ، ولا تلبث أن تستعيد الأمور طبيعتها



www.ibtesamh.com/vb

ومفهومها الطبيعي الأول ، الذي كانت مبنية به البنية الكاملة للجسد الواعي !.

لقد رأيت أن فلسفة الموت ، التي نخاف ذكرها .. ليست بتلك التي تستحق منا العناء ، فهي باختصار : توقف الزمن في الكائن الحي ، وبالتحديد : انقطاع الوعي بالأشياء ، وتوقف النشاط الذهني عن المدركات والعمل .

فانقطاعنا عن بالمدركات .. يعني انقطاعنا عن الخوف ، ويعني بالطبع غيابنا الكامل في فضاء آخر، لم نكن لنتعرف عليه من قبل، ولا يمكننا معرفته ، لذلك يبقى مجهولاً، وتظل مسألة الخوف قرينته طيلة مدة الإحساس بالإدراك والعمل الذهني .. وطيلة تواجدنا وإحساسنا بالحياة داخل وعي أدمغتنا .

إننا نشغل أذهاننا أحياناً ، بأمر تنقصنا فيه المعرفة ، وربما كانت هذه المفهومية .. من إحدى تراكيب بيولوجية الإنسان ، والكائن الحي على وجه العموم ، في تعامله مع آخر ومضات الحياة .

فالذبيحة مثلاً ، وقتما تجد أن أجلها يتعرض للسكين ، تأخذ انفعالاتها العضوية شكلاً آخر ، لا يمكن أن تفعله في أي مناسبة أخرى في حياتها ، وتبدأ كل أنشطة الأجهزة الطبيعية في بدنها .. تبذل أقصى فاعليتها وقوتها .

خوفنا من النهاية الحتمية للحياة .. ربما كان في تشبثنا بها ، وهو تشبث طبيعي في أي كائن ، للمحافظة على أوسع قدر من الحياة .



www.ibtesamh.com/vb

غير أن درجات التشبث تلك ، تختلف باختلاف مفهوم الحيـــاة، وباختلاف الإقدام ونوعيته في إنهاء المصير ، فالفقير – مثلاً – ليـــس كالغني في هذا الأمر ، والمقاتل ليس كغير المقاتل ، والمنفعـــل ليـــس كغيره، وهكذا .

وقد تبلغ الحال نوعاً من التقبل والرضـــى ، والســـعادة المطلقـــة الموقوتة ، دون إبداء السبب .

فموت فيه أمنية ، واختيار لشكل محدد ، مثل أمنية مـــوت " أبي عمرو " في التراث العربي .. حين دعا ربه ، أن " يميته شبعان ريـــان دفيان " .. تأخذ هيئة الكمال في عينه .

بخلاف أمنية الموت عند طالب الشهادة ، أو المقتـــول بـــالعطش فضاء الصحراء . غير أن كل تلك الهيئـــات والصـــور وخلافـــها.. تفقـــد جميعاً قدرتها على النشاط الدماغي في ومضة واحـــدة غـــير محسوسة.. اسمها : الموت .. النفـــي خـــارج الإحســـاس بـــالزمن والمدركات .

لقد قال "برنادشو" حين أفاق من غيبوبته .. إنهـــا أشـــبه بحلـــم جهنمي !.

لكنه نسي أن يتذكر أنه كان خارج مدار الزمن ، ومنفيـــاً عـــن فاعلية الإحساس به ، ذلك أن الغيبوبة بحد ذاتها ، هي الغياب الكامل عن المدركات ، وليس التوقف الدماغي في القيام بمهمات الإشـــراف



www.ibtesamh.com/vb

على بقايا أعضاء الجسم ، فهي تبقى تعمل بنظام ، ربما لا يختلف كثيراً عما لو كان الذهن في كامل حيويته .

وإذا كان قد رأى إنه في حلم لذيذ ، فهذا لا يعني أبداً تمتعه بذلك الحلم وقت فعل الغيبوبة .. لقد جاء بعد الإفاقة .

كما إن الحال عنده ، ليست قانوناً ، ففي الغيبوبات التي تغتال ذهنيتي في السنين الأخيرة – بعد الخامسة والثلاثين – .. تأتي بنتائج أقل ما يمكن وصفها بأنها تغيّم دواخلي بمشاعر تقززية ورهبانية، وبتأمل استرجاعي بالغ المرارة .. إنها تنتج مزاجاً كئيباً وخائفاً، وتدفع إلى البحث الشديد عن ألفة الآخرين ، وتلمس قربهم وعنايتهم، ربما كان لهذا شأن بمنطقة العلاقة الاجتماعية ، المتمركزة في – مقدمة الدماغ – كما وصف لي الطبيب .

وعلى أي حال ..

فإن للعلم والطب ، تفسيره ، وقدرته على التحليل وإن ما يهمني هنا .. محاولة الكشف عن مؤثرات التجربة بمقياسي الخاص المرتبط بمنظور الكتابة مع المرض .

والآن ..

هل يمكننا أن نعتبر المبدع شخصاً يختلف عن الآخرين ، في هزيمته للمرض ؟ لا يمكننا اعتبار الفنان شخصاً مختلفاً عن غيره من



www.ibtesamh.com/vb

الآدميين ، من جهة التأثر بالمحسوسات البدنية .. إلا إذا ربطنا بمقومات خاصة تميزه ، وتكون علاقة ملتحمة برؤيته وتفكيره، وإطار نظرته للحياة .. تلك الأساسيات التي تختلط بموهبته وحساسيته الفنية .

ولعل الشواهد في هذا الشأن كثيرة ، والأسماء تتعدد عبر التاريخ .

فلو أخذنا مبدعاً في الكتابة كـ " أستروفيسكي " صاحب " كيف سقينا الفولاذ " ولنأخذ مثلاً، باعتباره شاهداً نادراً ، قياساً بظروف صحته القاسية ، فإننا سنقول إن الجواب هذا النموذج .

فقد كان مسلوب الحركة تماماً " التهاب المفاصل الشديد " ولا يتحرك فيه سوى أصابع يديه .. حركة محدودة ، وبلغ به الحال ، أن فقد بصر عينيه ، وتعظمت أطرافه ووجهه .

لكنه كان يعمل في اليوم أربعة عشر ساعة ، على سكرتيرتيه، وكانتا قد تطوعتا لخدمته ، لكتابة ما يمليه عليهما وقراءته ، مع متابعة الإصدارات ، والنشرات اليومية . وكان يستقبل أعداداً من الناس، من شتى طبقات المجتمع ، الذين يجيئون لزيارته والتحدث معه .



www.ibtesamh.com/vb

شئ واحد كان حياً وذكياً فيه : قبة رأسه ولسانه ، ومع هذا كان يصرح بأنه يحس بغبطة لا نهائية في حياته الكتابية ، وفي انتصاره على آلامه التي لم تكن لتفارقه .

كان يقول :

" .. رغم أنني أعيش الآن أيضاً ، إذا حكمت الضمير في ذلك، حياة سعيدة ، وأسعد من حياة الكثيرين الذين يترددون علىّ عن حب استطلاع ، على الأرجح .

إن هؤلاء أجساماً معافاة ، إلا أنهم يحيون حياة عديمة اللون مضجرة ، رغم أنهم ، على الأرجح، يعتبرونني تعيساً ويقولون في سرهم :

" عسى الله ألا يجعلني في مكانه " ، بينما أقول في سري : " ما أتفههم ! لن أبادلهم دوري مهما يكن الثمن "

إنه انتصار فوق معدل التوقعات ، وتأكيد على أن الإنسان ليس في هيئة خلقته ، ولا بعافيته .. إنه فقط بمقدار فكره الشامخ المعطاء ، والمعبأ بنقاء التبشير الإنساني ، أما ما عدا ذلك فليذهب مع هبوب الرياح ، وهنا رد علمي على مقولة " العقل السليم في الجسم السليم " وهي مقولة استخدمت ووظفت نحو المجتمعات، والمجتمعات التبعية منها بالذات .

أليس فيها إلغاء لنشاط العقل البشري ، وصرفه إلى الانشغال بالنشاط البدني فقط ؟! من أجل الانشغال ليس إلا . ألا يمكن أن



www.ibtesamh.com/vb

يكون العكس صحيحاً أيضاً ؟ بل ربما أن العقل السليم بالضرورة سوف يكون حريصاً على العناية بصحة البدن ، وليس بالضرورة حتمية العكس .

نعود .. على المقدرة الفائقة لدى الإنسان ، والكاتب المبدع بشكل خاص ، فهو يجد في إبداعه كامل الاستحقاق في التحدي والحياة وصنع الطقوس المتلائمة مع ظرفه الصحي مهما كان صعباً .

ألم " رامبو " الذي بترت ساقه " ، " موبسان " الذي كان لا يفارق أوراقه في مصحة الأمراض النفسية ، وتحدياته لنظرة المجتمع ومعاملته كأي مجنون ! .. ولننظر إلى " ديستويفسكي " العبقري الروائي وقد التقطته أيدٍ عديدة من على قوارع الطرق حينما تداهمه حالات الصرع .

هؤلاء وغيرهم .. كتبوا للبشرية أجمل الأعمال الكتابية ، و لم تقعدهم حالات المرض .. بل كانوا أكبر منها ، ويثبتون عليها إلى الإبداع ، دون أن تكون همهم ..هناك .. عند الآم الناس وآمالهم، وكان ذلك بكل صدق وحميمية يسعدهم .

إذاً .. فإذا كان هناك قدرات مختلفة – ولعل هذا موجود في الآخرين من البشر ، الذين لا علاقة لهم بالكتابة والإبداع .. لكننا قد لا نعلمه ، لأنهم لم يُذكروا ، وليس لهم شهرة بين المجتمعات – فإن الدافع الإبداعي هو الأساس في تلك القدرات ، وليس سبباً وحيداً



www.ibtesamh.com/vb

حتمياً ، إذ أن هناك معوقات أخرى بالطبع .. لكنه سبب أساسي دون ريب .

هناك ردة فعل هي بمثابة نتاج الجهد ، أو المحصول المرضي للمزارع .. تلك هي السعادة التي تتحقق لدى الكاتب المبدع ، أن يرى فعلها عند الآخرين ، ليس على هيئة المكافأة التشجيعية بالمديح والتصفيق ، فذلك أمر لا يشغله .. بل بقراءة ما يكتبه ، إلى الذين يكتب عنهم وإليهم . فذلك مموّل يستمد منه تجديد مقوماته، ويدفعه لأن يعتني ببذور زراعته بالصدق والحب والاطمئنان .

إننا لا نقدر على وصف كاتب عالمي مثل " همنجواي " بالاستخفاف بالموت ، وجعله رخيصاً إلى جعله ينحر حياته بطلقة من مسدس ، لكننا نجد لهذا مبرراً في قراره النهائي ذاك .. حيث بلغ المبلغ الأخير في كسب الرضى عن نفسه ، وفي إحساسه بالوصول الكامل ، الذي أتخمه ، وعطل الرغبة لديه في إنتاج المزيد، وهنا لم ير الضرورة في البقاء .

ربما نحاسبه طويلاً على حتفيته تلك ..لكننا لا نستطيع أن نقول لا تختر هيئة لموتك أيضاً . لقد قرر بعد بلوغ سقف السعادة من ردة الفعل ، – وفي إطار التركيبة الاجتماعية الأمريكية – فرأى تنفيذ أقصى مدرك بسعادة الحياة: الموت ومع أن شهادات أخرى، ترى أنه لم يكن قاصداً الانتحار،لكنها لم تقدم دليلاً مؤكداً، وراحت



www.ibtesamh.com/vb

تحلل الحادثة ، بعيداً عن بنائية كيانه الإبداعي ، الذي كان منطلقة ورؤيته ، وحياته الخاصة والعامة .

إذاً فمسألة السعادة .. ذلك الدافع الخطير والمهم عند الكاتب المبدع ، – ومع علمنا بنسبيتها – تعتبر " سيزيفية " الإستمرار والتحدي في مواجهة مصاعب ظروف الصحة السخيفة ، ولا حاجة لنا إلى تزكية بعد هذا .

وأريد أن أقول شيئاً آخر ، حول ما يعتبره الخارجون عن الحدث ، معجزة أو "شطارة " في شأن تحمل الألم ومغالبة صعاب المرض .

فالأمر ليس أسطورياً ، ولا خارجاً عن القدرات الآدمية .. الفرق هنا كما أسلفت هو إمكانية الاستيعاب والمخاطبة ، وإقامة قنطرة الحوار والتفاهم مع الظرف الصحي وهي مسألة تنمو وتتطور بفعل التجربة والعبر ، وتبدأ تتشكل معها بنائية الزمن النفسي .. ذلك المؤدي إلى الإنفتاق الكتابي .

إن الأمر لا يخلو من أحد نتيجتين حتميتين : الانتصار وبالتالي الاستمرار ، أو العجز والهزيمة ، ومن ثم الذبول ثم الانطفاء . وتلك مسألتان تحددهما كل جزئيات البناء الكلي للكاتب .. المبدع ، فإذا كان ممن صنفوا في النتيجة الحتمية الأولى ، فإنه سيبدو في أعين الآخرين شيئاً خارقاً .. بينما هو في ذاته لا يرى ذلك ، وربما



www.ibtesamh.com/vb

يسوءه هذا المفهوم ، لأنه سيجد فيها خرقا للمألوف الإمكاني البشري ، فيحسمه بأن الأمر مبالغ فيه ، وليس في الحقيقة أنه مختلف عن إمكانيات الغير ، ممن يصابون بما هو أكبر .

ولشد ما تقلقني هذه النظرة المدعمة بالحفلات الكلامية ، والتي أدرك في أحايين غالبة .. أنها ربما تكون مشفوعة بمزية الشفقة الهزيلة ، والتي لا يؤذيني أي إيذاء كإيذائها .

فكثير من الأصدقاء ، أو الذين يسمون نفوسهم أصدقاء .. تكون زياراتهم من هذا الباب ، وبعضهم لا يدخل المستشفى الذي أنام فيه ، لأنه يخاف من حالة هذا المسكين أن تهوي بنفسيته ، ويبقى متأثرا من كارثة في رأيه اسمها المرض ! وأذكر من زملاء الكتابة والإبداع ، من يزورني بجهاز الهاتف .

أقول : يا له من مسكين ! .

في حالة ما .. احتجت إلى الدم ، فرفض لأسباب لم تقنعني ثلاثة أصدقاء – يرون أنهم حميميون – إعطائي شيئا من دمائهم.. إنني أعذرهم وأدرك مثلما يدرك المرء خطوط كفه .. أنهم معافون، ويخافون خوف الموت التعرض لأي ظرف صحي ، حتى ولو كان في أقرب الناس إليهم .

بينما نجد في الضفة الأخرى .. أصدقاء يؤنسهم أن يقدموا أعز الدماء والأعضاء . إذا فالمسألة – كما أسلفت – ليست قانونا معلقا



www.ibtesamh.com/vb

بالكتاب والمبدعين فقط .. إذ أن فيهم من هو دون القياس العـــادي المركب في كافة البشر الخائفين .

عندما قال الشاعر العربي " أمل دنقل " في آخر أيامـــه ، أنـــه لا يخاف الموت ، بل يخاف العجز ، لم يكن محطما إلى نقطـــة يظنـــها البعض الاستسلام .. لا ، بل كان يرى في قرارة قناعته .. أنه أكـــبر من الإصابة بهذا الخلل الطبيعي الســـخيف ، وكـــانت نظرتـــه في " البطاقات التي تحمل أسماء قاتلي الزهور ، المقدمة إليه مـــن أصدقائـــه الزوار " .

وإذا كانت قناعته النهائية .. بأن زائرا أخيرا ،ســـيكون مضيفـــه الأبدي ، اسمه الموت .. فإن هذا لم يقطعه أبدا عن الورقة والقلـــم .. عن إدراكه الكامل بالهم الخارجي .. بألم الآخريـــــن ، وبطمـــي الجنوب، وباستدراكات أخرى يراها في غاية الهم ، بعيدا عما يفكـــر فيه أصدقاؤه وزائروه .

لم تكن معاناة المرض على الغالب ، عند الكتاب والمبدعـــين .. تأخذ حقا شرعيا في الكشف عن ذاتها بشكل صريح .

نعم ..

لأنها كما وصفها أحد العالميين بأنها " ظرف سخيف ". إن مـــا يعنيه بـــ " السخف " ليس التقسيم الموضوعي الذي لا يتفـــق معـــه فيـــه الآخرون .. لكنه في تقييمه هو .. كان يراه معطلا ، مفســـدا لمســـرات الحياة ، والحياة الكتابية .



www.ibtesamh.com/vb

غير أن واقع المحصلة بكامل عضويتها ، تتداخل أغصانها في غاية التجربة ، حتى ولو لم تكن مباشرة ، فافتراض إبعادها يكون نوعا من الضرب المثالي الخارج عن قانون الطبيعة العلمي .

لا أراني قد وظفت ظرفي الصحي الطويل ، توظيفا ذا أهمية .. ذلك أن مشاغل كتابية أخرى .. تأخذ في نظري ، وفي تفاصيل معيشتي لفتة أكبر ، ولا تزال تؤرقني مسألة حاجتي إلى عمر جديد للكتابة .. أعتقد أن هذا لن يحدث أبدا ، فلم أفكر يوما أن كاتبا سيعتني بخصائص العالم الذي يمدني بمادته " الكتابية " التي تجري مع دمائي ، و أجد ظلما له في عدم الالتفات إليه ، ورصد مفردات حياته ، ربما كان هذا نوعا من مصادرة أحقيات جديدة ، سوف تكون شيئا ؟!

لا أظن ذلك ..

فالسجنة الخاصة بهم .. تمحى يوما بعد آخر ، وتذوب في كل عقد آلاف الخطوات ، وعليه فإن رصد خصوصياتهم ، يصبح صعبا بل مستحيلا ، وعليه فإحساسي المغموس في الهم المحمول .. يبقى كالأمانة المدانة ، لمحاولة بسط أكبر مساحة من الزمن والتهيؤ .. للكتابة عنهم . فعالم القرية عندنا ، يصبح عليه كل صبح بقميص جديد لم يكن ليعرفه من قبل ، ولا يعرف خيوط نسيجه ، وإنما يجده معلقا على باب غرفته كل صباح مكويا ، وتفوح منه روائح



www.ibtesamh.com/vb

المنظفات ، فيلبسه جاهزا .. وليس محاسبا أن يؤاخذ على الوثوب.. إنه غير مسؤول عن فتافيت الاستيعاب ، وهو بطبيعة الحال ربيب ما يملى عليه .

إذا فقد كان هم الرصد والتوثيق ، لخصوصيتهم ، ثم تحولهم الاجتماعي الضبابي البراق .. يأخذان في الخاطر الهم الكتابي الأول والأكبر .

وعندما أصدرت " الزهور تبحث عن آنية " عن بعض التجارب في دهاليز المرض ، وبالتحديد المستشفيات ، لم تكن لتكاد تخرج عن ثوب القرية ، مع ملاحظتي الخجولة لهذا المنحنى ، ومحاولتي الخروج منه.

عام ١٩٨٧ م صدرت هذه القصص ، وبعد أن تلقيت دعوة ملحة من الكاتب الروائي " صنع الله إبراهيم " حيث وقعت في يده إحدى قصصها المنشورة .. ورأى أن يكون هناك مطبوع تكون مادته ما يمكن وضعه من التجربة المرضية ، ورحت أشرع في تنفيذ هذا الرأي .

لكنني لم استثمر بعدها ما تبقى ، ربما – كما أسلفت – الانشغال بهموم كتابية أخرى . قرأت وجهات نقدية .. تقول : إن قدرتي على التعبير عن الذات غير موفقة .. ربما كان هذا القول يصادر حقي



www.ibtesamh.com/vb

الخاص في التعبير عن الأنا ، ولكن لا خلاف فمن ناحية .. لا أحب تواجد الأنا المثقفة في كتاباتي ، ولا يسعدني أن أفترض الوعي لدى الناس ،إلى تلك المرحلة من التخاطب ، بقدر ما يهمني السعي وراء خلق الوعي فيهم ، ولعل في هذا مغامرة مضنية - على الأقل بمستوى الرضى الفني - فأنت تحتاج إلى موازنة يقظة ، تقيمها بين مستوى وعيك وفنية قلمك ، وبين إقامة لغة مفهومة يتم من خلالها التخاطب معهم ، على أن تستدرك زمام شكلها الفني بصورة جميلة وغير مخلة بمستوى الفن فيها ، لكي تنمي ذوقا فنيا ومتجددا في قرائك .

لن تغرق في التفاصيل حول هذا الأمر ، فله بابه .. نعود إلى موضوع الفصل ، فنرى أن أصعب الحالات على الإنسان ، هي تلك التي لا يجد لها حلا ، ولا أملاً ، فحين تنشب الحالة الصحية أنيابها إلى حد قرارة الوجع ، وتبحث عن أي مهبط لإخفاقها ، ولا تجد .. فإنك لا تستطيع أن تجعل من عدم قدرتك على تسكينها على الأقل .. " ستيف هوستن " أو " كن فيكون " وعندما تعلم أنه ليس لها من علاج ، فإنك تزداد حمقا وألما .. يزداد نفسك، ويحتقن بالغمامات والسخام .

ولا يشفع لك ، إلا شيء واحد.. هدوءها النسبي التلقائي، لتبدأ استعادة مجرى صغير ، تنكس عبره الغمامات .



www.ibtesamh.com/vb

أذكر هذا الطقس الإيلامي لأقول : هنا بالضبط ، وفي الدخول عبر هذا المجرى الصغير المؤقت .. تكون لحظة الجمال السعيد الكاملة .. لحظة لا يمكن وصفها إلا بأنها انتصار المحارب، والإطلالة بكامل شعور التفتح الربيعي نحو الحياة .. الإبداع الحسي بكل المؤثرات ، استعادة حب الناس بقوة متجددة ، الشفافية في التعرف على تفاصيل جواهر الأمور .

نعم ..

هي حالة لا ريب ، أعرف مدى أجلها الزمني ، الموعود بها ، أو بأكبر منها ، حالة حادة قوية .. مؤلمة إلى حد اليقين بعدم توفر العلاج لها ، وبقناعة علمية . غير أن اللحظة الفاصلة تلك – الموصوفة أعلاه – بـ" انتصار المحارب " تمون بالغذاء الكامل ، الذي أراني فيه محتاجا إليه .

إن القانون البديهي لصراع الأشياء مع ضدها .. لم يأت من الخيال ..فليس هناك شبع دون جوع ، ودفء دون برد ، وغيره من معاكسات الضد .. كذلك فمثل تلك الحالة المحاطة بحب الحياة، والناس ، والاندفاع نحو الإبداع ، لو لم يكن ألما كان هناك إحساس بقيمة ضدها : الصحة .

لندعنا من التنظيرات الجاهزة في استنباطها من الأمور المغلقة .. إنني أتحدث مضطرا من خلال الألم الذاتي المعاش ، لكي أؤكد هذا الجوهر .



www.ibtesamh.com/vb

أعتقد أن الإنسان ، عندما ينوي الموت ، وهو على فراش المرض .. فإنه يختار هيئة موته ، إنه يموت . المسألة لا علاقة لها بالمنظور الميتافيزيقي ، وليست من باب الافتراض المثالي .. بل أرى أنها الحقيقة ، وضد هذا الشأن ، من يجد أنه لم يتهيأ للموت ، ليس لأنه يخافه ، بل لأنه يجد في قدراته التغلب عليه ، وأنه يحتاج إلى عمر أطول وأبقى ، من أجل أشياء سامية ، ليس بقرار الحفاظ على الذات المسكونة برغبة الاستمتاع الاستهلاكي لساعات الحياة .

إننا نجد في التاريخ شخصيات شهيرة وذات رسائل إنسانية تاريخية .. لم يجدوا من بقائهم بعد تأديتها ..سوى أن يتهيئوا للموت .. وكان لهم ذلك ، لقد أدوا أماناتهم ، وقالوا للناس ما يريدون أن يقولوه ، ثم أعدوا لحياتهم ميقاتا .

بالطبع لا يمكننا أن نجعل من حالات تقبل أو رفض الموت، والإحساس بالتهيؤ له عن عدمه .. قانونا ، ولا يمكننا اعتباره مقياسا علميا كاملا على كل الحالات ، إذ أن هذا الشأن يحتاج إلى بحوث طويلة متنوعة الموارد ، يعنينا أن تظل في إطار القياس ،من خلال التجربة الخاصة ، المختلطة برغبة الحياة ، والإبداع ، والجمال النسبي المعجون بهم الكتابة الإبداعية .

ولعل ذلك العشق الجنوني ،والراكض على حواف ثواني العمر، برغبة النبض الدموي في الكتابة ، لم يساوم في قبول أي معطل ،ولا



www.ibtesamh.com/vb

يراهن على شيء مثلما يراهن على الاستمرارية .. الاستمرارية المطلقة ، تلك التي لا ترضى بالتخبؤات والمداهنة ، وليس لها أي منافس ولا مقابل ولا معوض ، الرغبة الجامحة المبهمة في الإبداع .

أحد الحالات المتكررة في ظرفي الصحي ، الذي " ليس من صداقته بد " إن نتائج ضمور أعصاب الأطراف .. تكاد تحول دون الكتابة ، وتبقى الأصابع مشتعلة بالحرارة العالية ، مما يستوجب وضعها في الماء .. فأحضر " طشتا " على طاولة الكتابة .. أغمس اليدين عشر دقائق لتبرد نصف المدة ، أنفقها بين الورقة والقلم، تكون الحروف كبيرة أحيانا ومعوجة ،وتتشابك السطور .. غير أنها تبقى مسكونة بالرغبة المحمومة .. بالانتشاء والمسرة .

لا خلاف ولكن ما سبب تلك المسرة ؟.

لا نستطيع أن نقتبسها بميزان ثمرة الإبداع ، وأبدا ليس بميزان الانتصار ، الذي قد يفسره من يعلم.. فالأمر لا رابط بينه وبين التحدي أو " الشطارة "لا ، فإنما أجدني ضعيفا وخاملا ، وقابلا للانكسار ، ومرارا يرتادني حس بالغباء ، والطفولة في ثوب إنسان كامل البناء .. لا رابطة بين ما يظن أنها قدرة غير اعتيادية وبين ما تحمله دواخلي ، القوة المحملة بالمسرة تأتينا من هنا فقط .. من الطقس الكتابي ، والإبداعي ، أما ما عدا ذلك في الجورب العتيق .

والآن ...

هل يمكن تحويل الألم إلى إبداع ؟



www.ibtesamh.com/vb

قد يبدو سؤال كهذا قشوريا ، وربما تعززه بإضافة : وكيف ؟

بديهيا نعلم أن المعاناة المعتمدة على التجربة الخاصة ، وإلى حد مبالغ فيه ، تدفع بالكاتب والمبدع على وجه العموم ، إلى استخلاص مركب ، يكون بمثابة الرحيق ، يقطر بحرارة واقتصاد عن أداة فنه، وبالتالي فهو محاسب أمام إبداعه عن ذلك الاستخلاص وهو أيضا - وبدون تكلف - سيمضي بانقياد نحو إفاضة مهذبة ( لا أعني أخلاقيا ) نحو التعبير ، وعليه فإن بديهية السؤال في مكانها .

لكننا نرغب في التعرف إلى كيفية الربط بين الألم والكتابة، فعندما يسيطر الألم المتقرح من بيولوجية البشر ، فإنه بالضرورة يأتي على هيئة الحس ، وهو المدى التأثيري المسيطر على كل انفعالاته ووظائف أعضائه وهو تلك النافذة الضيقة المحصورة ، التي يطل منها إلى الحياة ، وعبرها تتحدد نظرته ومفهومه المخزون لفلسفتها . وحينما يكون هاجس الكتابة ممتزجا بدماء الكاتب .. فهو بلا شك مقترن بالألم حين حدوثه .

الكاتب لا يحتاج إلى شهود ، حتى يقدموا له مرأى الحواس، بأنه ملتقط ذكي للأشياء ، وعاكس حذق للأوجاع المبثوثة في دواخله أو خارجها في المحيط المعاشي ..فكيف وهو يصارع أوجاعه ؟ كيف وهو الذي يعايش الأمر في كل ثواني حياته ؟!

في تلك الومضة الفاصلة بين نهاية الألم ، وين الدخول فيما بعدها .. تبدأ حكاية جديدة بلسان وعين مزدهرة بتكفير الآثام



www.ibtesamh.com/vb

حكاية أخرى لم يكن يحسب لها حسابا لو لم يكن الألم قد عصر صحته .. إنها كالمكافأة الحلوة والمجزية ، لا يجد ما يعادلها . جمالها في أنها تتجدد ، وفي كل مرة خروج من حالة ألم مستجدة .. تتكور تلك الحكاية وهكذا .

إننا لا يمكننا وبأي حال من عدم الإدراك ، أن نتصور أن الكاتب المتجاوز لآلامه ، يختلف عن طبيعة الآدميين في حسه بالألم ، فمهما بدا في عين الآخرين أسطوريا .. إلا أنه لا يجنح خارج مطارق الألم .. الفرق هنا ، أنه يحوله إلى إبداع ، ويجد فيه كامل العزاء والانتصار ، وبالتالي الأحقية في تكثيف المقاومة من اجل إبداع أكبر وأجمل .

فالألم هنا – وهذا ما أريد التنويه عنه – ويطوف هناك خارج بدنه ، يتحول بين الآخرين ، وينصهر بمحبة بالغة ، ليكتب عن آلامهم المختزنة في دواخله على شكل تراكم همومي عميق ، لذلك فإيجابية الألم تكون بارزة عنده ، وموظفة توظيفا نابضا ، مثلما تواجهه أية صدمات تشويهية خارج ذاته .

* * *

إن الإنسان لا يسعى إلى وضع نفسه في مأزق لا يرضاه وإذا ما وجدها في ذات حال تنغمر في ذلك الوضع .. فإنه يبحث عن



www.ibtesamh.com/vb

منقـــذ تعويضي عزائي ، أو عن مخرج نهائي ، لكنه إذا عجـــز عـــن تحقيقه فإنـــه ينظر إلى ذاتـــــه أولاً .. ثم لا يلبـــث أن يتخلـــص أو يتـــأقلم ، ويسمونه أحياناً بـــ" الاستسلام " .

هو في الحقيقة ليس استسلاماً ولا خنوعاً ، فالإنسان بطبيعتـــــه – حسبما أرى – لا يستسلم لأمر ترفضه دواخله ،حتى وإن ظهر لـــــه أو للآخرين .. إنه يتلاءم ،يحني رأسه كي تمر الرياح القوية .. لـــوازم طاقة تحمله واستراتيجيته وآماله وطموحه .

لقد تعودنا حسب تربيتنا ومخـــــزون فـــهمنا للحيـــاة ، الـــذي توارثنـــاه، وخلق فينا صيغاً سلوكية محددة ومؤطرة بنهايات مغلقة.. تعودنا أن نستسلم لقدريات مسدودة الطرق ، باعتبار أنهـــــا أمـــور مستحيلة ، ومعجزات قهرت من كان قبلنا ، دون أن تجرب صراعها نع ذواتنا ، وبالتالي فإن شرط الفشل والخســـارة يســـبقان محاولـــة الإقـــدام في خوض التجربة .. الحكم المسبق .. الاستسلام .. التـهيؤ بضعف لاستقبال الكارثة .

نعم ..



www.ibtesamh.com/vb

هكذا نحن ، نكورث القدريات بإصرار سابق ، فنذهب ننصب خيامنا لإيوائها .. لاستضافتها ، فنعد نفسياتنا لطارئات يمكن أن تقع لأي منا ، إعداد سلبيا مستسلما وبضعف شديد .

إن الكائن البشري ، تلك الغابة المتشابكة المتصارعة ، لا تتهادم توزاناتها ، إلا حينما تطغى كفات موازينها على بعضها البعض ، وفي أحايين تكون ضرورة ، هي جزء بنائيتها النفسية والبيولوجية .

وكما أسلفت .. فإن الحنين - مثلا - لن يكون مشتعلا في جوانحنا، ما لم يكن له ضد ، وهذا الفن يكون على هيئة الحاجة وأحيانا الحاجة الشديدة .

إنني في محطات شبه متصلة أنغمر في الحنين ، بل يغمرني بين مخالبه، لكنني قد لا أبدو كذلك أمام الآخرين ، بل أتصنع ألا أكون كذلك ، وحينما أعود إلى نقاش الذات أجد أن هناك جوابا جاهزا، الآخرون لديهم أحزان ولا يظهرونها .

قد يكون في هذا جانب كبير ومؤكد من الصحة ، ولكن ثمة مفارقة ، وهي أن لكل منا في غابته الداخلية مسالكه الخاصة التي لا يعرفها غيره ، ولو افترضنا معرفتها .. فإنها لا تعني لنا حلا يتناسب مع أحزاننا .

والسؤال الفج الذي يسيطر علينا وقتها

لماذا نحزن ، وما هو المخرج ؟!



www.ibtesamh.com/vb

لن أستطيع الإجابة .. لأنها قد لا تكون ملائمة لك ، ولكني سألوي عنق الأمور ، لأبحث عن ملجأ ، وسيكون مؤقتا .

فدوافع أحزاني تختلف عن دوافعك ، وبالتالي فحلولها لا ريب ستختلف .

إن الحزن عندما يحتل دواخلك ، فإن البحث في الذات ، وفي المؤثرات يأخذ أول تفكيرك ، ومن هنا تظن أن ما ينقصك هو السبب الأساسي في تواجد الحزن .. فحينما تحتاج إلى كائن ضروري تفتقده ، ولنقل " المرأة " فهذا لا يعني أنك قضيت على مباعث الحزن التي تقطر من أطراف أصابعك طالما أنك تحيا وتحس وتفكر .

لا ....

بل أنه مرتبط بكينونتك ، وبضرورة العوامل الشعورية المختلطة بداخلك ، ولو افترضنا جدلا بأنك لا تحزن أبدا .. فإننا نفترض أنك بالضرورة تحتاج إليه مثل الآخرين ، لأنه سبب خيري لما هو على العكس منه .. كأن نفترض المسرة مثلا أو السعادة .

أنبهك إلى أنني أتحدث في محدودية رؤيتي وتجربتي ، وليس باعتباره قانونا .

إنني أحزن كثيرا ، ولأسباب كثيرة ، قد أدرك دوافعها على الغالب ، وأبكي كثيرا ، ليس لأن البكاء حل ولكن لاعتباره



www.ibtesamh.com/vb

ضرورة حتمية مشروطة بتوقعات و مبررات قد لا أرغب في معرفتها ، أو تفحصها أمام ذاتي .

إن الخجل من الذات قد يأخذ شكلا غير مبرر وقد يومئ بنا إلى الانصراف عن المحاسبة الذاتية .. لماذا ؟!

لأنه خجل .

فحين نتصور — ونحن نبكي في إنكفاء — أن الدموع تتقاطر فوق شواربنا التي غزاها الشعر الأبيض فإننا سنخجل بنسبة ما ، وهذا الخجل قد يكون مكتسبا .. بينما هو عند الآخرين مشروعا، و أحيانا معدوما ، أو أنه يكون في مناطق أخرى غير تلك التي نخجل فيها .

في أيام ، أكون تحت وطأة الغسيل الدموي ، فيشتد بي الألم والعزلة وعزاء الذات ، وأدفن رأسي تحت الغطاء ثم .. أبكي طويلا ، وبحرقة أجد لها في الهروب عن التبريرات ملجأ ، ولكن فقط عندما تكون دوافع ذلك البكاء لا تأتي على هيئة مبررات .

إن في الحزن لذة وفي البكاء ، وفي صدمة الكارثة .. لكنها لذة غير مبررة ، ولا نملك الجرأة على تفسيرها أو الوقوف أمامها .. لأنها تعلمنا أنها أمور مكروهة ، وغير ملائمة بمقياس ركضنا وراء السعادة .

غير أن تلك اللذة المكروهة تحني هاماتنا ، وهي لذة تعني احتياجنا إلى نقيضها المطلوب دوما ، والمشروط باستمراريتنا في



www.ibtesamh.com/vb

الحياة ، لكـــن هل يعني هذا أننا متوازنون في انفعالاتنا ومشاعرنا إلى ذلك الحد ، الذي يجعلنا قادرين على موازنتها ؟

هذا هو السؤال الذي أرى أنه أبدي .

لقد رأيت أن الإنسان ، عندما يرى الآخريـــن في موقـــف مـــا يبكون ، فإنه لا يلبث أن يتراجع ليبكي ، ويستعيد صورا تدفعه نحـــو البكاء ، ويجد أنه مختلف عنهم في فهم ذلك الموقف إن لم ينضـــم إلى البكاء معهم .

قد لا يبكي من أجل السبب الذي اشتركت فيه دموعهم .. لكنه يبكي ، وبالضرورة فإن الآخرين أيضا تختلف دوافع وصور البكـــاء عندهم ، ولكنه الكل يظن أن ذلك الموقف الذي مع بكائياتهم هـــو الدافع الحقيقي !.

من كل هذا يعنينا ما يتعلق بشاهد الموضوع " الكتابة والمـــرض " فتلك الاختلاطات المتضـــادة في الغابـــة الرهيبـــة ، الـــتي تســـكن الكـــاتب— المعني — تأخذ صورة مغايرة في شأن مغاير ، هو شـــأن الرصد والتتبع والمساءلة ، ومحاولة نزع القشور التي يكتفي بظاهريتـــها الآخرون .. إنه يحفر لكي يبلغ اللب ، ظن أنه في أحوال كثيرة يعـــود للمرجعية التي يستقي منها — الآخرون — اقتباساتهم في الحكم علـــى الظواهر .. أعني أنه — أي الكاتب — يلتفت إلى الخلف ليتســـاءل : لماذا ينظرون إليها بهذا المنطق ؟



www.ibtesamh.com/vb

إننا لا نستطيع ككتاب مبدعين ، أن نتكلم عن كل ما يشغلنا، ونلجأ مرارا ، أو عادة إلى مواضع تغلف الحميمية والمسرات الصغيرة المباغتة لانفعالاتنا الإبداعية .. فنبدع ن دون أن نضع في تصوراتنا القيود والمحاسبات ، وأنظمة القوانين الطبيعية والتفصيلية التي تذهب برؤانا خارج لذة الإبداع .

وحينما نتضادد مع ملاحظات الآخرين حول إبداعاتنا .. فإننا بالضرورة ننطلق من هذه المنطقة.. لأننا لا نجد في محاسبتنا على انفعالاتنا الإبداعية ترحيبا لتلك الحساسية التي لم يدركها إلا القليل !.

هؤلاء القليل .. أرى أنهم قريبون منا في الفهم ، أو أنهم بالتحديد يعيشون ذات الشعور ، والذي قد نسميه موافقة الموقف .

هو في حقيقة الأمر قد لا يكون تماثل الموقف .. فالموقف لا يقبل الحيادية .. بل هو الموافقة الشعورية .

فالموقف لا يتعاطف مع أحزانك وبكائك .. لأنه يعتبرها انفعالات لا تهمه ، واحتضانها أو حسمها أمر يتعلق بك وحدك .. لكن بالقياس الإبداعي ، الأمر يختلف .

الموقف قد يتعامل مع الحالة بنظرة عابرة ، لا تستاهل الوقوف، بل ربما بنوع من اعتبارها عجزا أو ضعفا .



www.ibtesamh.com/vb

إننا نموت وفي دواخلنا آلاف من " حـــتى " آلاف التفـــاصيل، آلاف القرى المطمورة في دواخلنا لم نكتبها و لم نتكلم عنها ، ربمـــا لموانع داخلية أو خارجية .

إن الكاتب لا يستطيع أن يدعي أنه تكلم في كتاباته عما يكنـــه في حناياه .. لا أعني أن الأسباب الرقابية والاجتماعية هي المـــانع .. تلك موانع لها تفاصيلها ، وإنما أعني : أن الكاتب مهما وعـــى أنـــه أراح راحلته ، وفرض الحقيقة المترعرعة في صدره .. فإنه ســـيغالط واقع ذاته .

أظن أن هنا في وعينـــا التلقـــائي ضوابـــط ، تـــتراكم بشـــكل اقتصـــادي ، لا تلبث تجارب الأيام أن تزيدها تراكمـــا ، وتزيدنـــا انضباطا وتقترا .. إلى متى ؟ إلى أن تنطفئ حياته .

لقد أفادني هذا الأمر في تفصيله مهمة في رأيي — على المســـتوى الكتابي — ألا أؤجل .. لقد أجلت كثيرا مـــن المشـــاريع الكتابيـــة، المرتبطة بتجاربي المرضية ، وكنت أراها موضوعات بالغة الجـــدارة، وتستحق وقتها الكتابة ، لكني ضيعتها ، ونفرت من ذاكرتي .. ربمـــا من الأسباب أيضا ، تكرارية التجارب وتشابهها ، وتآلفي معها .

لا أندم على هذا فقط .. بل أندم علـــى تفريطـــي في الحـــالات المتهيئة للتعبير الإبداعي ، ومع إننا إلى حد .. لا أجـــدني كســـولا،



www.ibtesamh.com/vb

فطبعي الحياتي لا يميل إلى التسويف ، لكنني أجد مـــرارة في منـــاطق كتابية كبر فيها التأجيل .. ليس إهمالا ، وإنمـــا لاختيـــار تلاؤميـــة مناسبـــة ، فتذهب مع الأيام وتفنيها تشابكات الحياة .

إنها على نفقة العمر الإبداعي .. على حســـاب العمـــر ذاتـــه والتفريط في توظيف الزمن توظيفا يتناسب مـــع نتاجنـــا وعطائنـــا الإبداعي ، و دعوة للكتابة المزاجية أحيانا .



www.ibtesamh.com/vb

# الكتـــــابـــــة والعـــــــزلة



www.ibtesamh.com/vb

لست أدري أين قرأت .. عن حالة أحد المبدعين ، وكان يقفل على نفسه أياماً في بيته ، ويراقب الناس في الخارج من ثقب صغير في الباب .

وأذكر وقتها — في أوائل السبعينات — أنني أنست بما قرأته .. فقد كنت أنطوي طويلاً ، وبعيداً عن الخارج في الغرفة ، ولم أجد تفسيراً لحالتي تلك سوى أني لا أحب مخالطة الناس كثيراً ، وأن السبب يرجع إلى اعتبارات يغلب عليها مفهوم النفور بحكم وعي المرحلة الشخصي .. مما يجعلني أجنح نحو العزلة ، وساعدني كوني أعيش بمفردي متآلفاً مع غرفتي الطينية في إحدى الحارات الشعبية بمدينة " الدمام " .



www.ibtesamh.com/vb

لقد اعتبرت الحالة معيبة ، وتعبر فعلا عن نقص ، فمـــرة أرى أن نظاراتي المكبرة تلفت النظر ، أو أن شعر رأسي طويل ، كنت لا أقيم اعتبارات ذات بال بما يظهر للآخرين ، غير أن ما يقال من أن " ليس للناس سوى الظاهر " تتخذ صفة القناعة أحيانا ، و لم أكن أنظـــر إلى تغريب ذاتي .. بقدر ما أنظر إلى الخارج بأنه غريب وتافه أحيانا .

كانت العزلة اختيارية .. إذا ما عزلت عنها ألفتي المحمومة بهـــا، وبين مسراتي الصغيرة ، التي أقضيها بين كتبي وأوراقي و ألواني .

أذكر أن صديقا كان يعيرني ، بأنني لا أختلف عن جدتـــه .. إذ عندما تخرج معهم في نزهة إلى البحر لا تلبث أن تخلق صنوفـــا مـــن المعاذير الصحية ، وتكرر أعيدوني إلى سريري في البيت .

رأيتني لا أتصالح مع الجماعة مهما كان عددها قليلا .. أرغـــب في العودة إلى حميميتي الخاصة ، هناك أجد ذاتي .. ثقـــتي .. محبـــتي وعنفواني .

أخذت مفاهيم العزلة مـــبررات أخـــرى ، متعـــددة الســـبب و التـــبرير، بقيت و أجد لها تفسيراً ، أو ربما لا أريد لهـــا تفســـيراً، لأنه ربما أفسد عليَّ لذة الانقطاع أحياناً .

إنها لذيذة ، لكنها غير محبوبة دائماً ، فقد تصيب مراراً بـــالتذمر والخيبة والتلولب حول الذات .



www.ibtesamh.com/vb

في الغالب نحن نحتاجها .. لأن إبداعنا يستوجبها .. لأنه إبـــداع شخصي ، لا يكون نقياً ، إلا إذا ما تصورنا أننا منقطعـــون .. لا يرقبنا أحد .

نعم .. إنها قد تبدو جديرة للآخرين ، بهذا الانقطاع الوحـــدوي الخاص ، هذا غير صحيح . فالكثير منا لا يجـــد في ذاتـــه التحقيـــق والثقـــة إلا إذا كان وحيداً ، لا يحجزه عن الورق والقلم حـــاجز ، ولا أي فاصل ذهني آخر ، غير التفرق الكامل المتجاوب مع ركـــن انكفائه ، الذي لا يحتمل أي شاغل ، أو مراقب آخر .

هناك تجاوبات فنية قليلة ، أو شبه فنية .. لا يمكـــن أن تتـــم إلا بوجود المشاركين فيها ، وهي — على الغالب — تســـتوجب تعـــدد التواجد الجماعي .

فنحن مثلاً نجد أن عدداً من الرسامين ، يجمعهم مكان واحـــد ، وكلهم رسامون ، يستخدمون ذات الخامة ، وذات الطقس يغلـــف حضورهم .. لكننا سنجد أن لكل عالمه المعزول الخاص ، وله ألفتـــه الخاصة به في علاقته مع ذواته تلك التي تساعد على استخراج عنـــاء ومشاعر دواخله المختلفة عن غيره من الزملاء ، إنه شكل من أشكال العزلة أللا اختيارية ، والتي قد تأخذ صورة عند مبدع آخر .

غير أن تلك الإنطوائية التي أعنيها ، هي التي نعتبرها جزءً ضرورياً وشرطاً لا يقبل التفاوض .. ليس لأننا نعتزل من أجل الإبداع فقـــط ، وإنما لأننا نحتاج أن نزاول وحدتنا ، وألفتنا ، وحميميتنا مع انفرادنا ..



www.ibtesamh.com/vb

حين لا نقبل أن يعوضها أي معوض آخر ، مهما بدأ للآخرين مهماً ويجنح بهم نحو المسرة . الفرق أنها مسرة لا تصعب عليهم معرفة أسبابها وحلولها متوفرة ، ومرتبطة بمعرفة نقائص ملموسة .. لإقامة علاقة النشوة معها ، وهي نشوة محدودة وسهلة التوفير والتناول .

لكن ، الذي نفتقده ونحظى به في آن ، أثناء عزلتنا .. ليس مدركاً بالضرورة .. بل أنه غير مدرك أبداً ، وربما لو تم اقتناص أسبابه ومحاكمتها .. لفقدت كونها عزلة ، ولخسرنا جزءاً لذيذاً و مخيفاً وحبيباً وضرورياً ، أثناء حالاتنا الحياتية الخاصة ، والإبداعية بالذات .

فكثير من الظواهر الخاصة في حياتنا .. تتطلب ألا نقشر أغلفتها، وكثير من الغوامض الذاتية .. تفتقد كونها غوامض إذا ما علمنا بظواهرها .

هذه ليست دعوة لتهيئة الانعزال .. لأنها كما قلت غير اختيارية ، وليس بإمكاننا طردها أو استضافتها ، وإذا كان خللاً ما في إعطائها طقسها الشرعي .. فهو يعود إلى توظيفها توظيفاً اعتبارياً سلبياً ، أو إعطائها غير شرعيتها و بصورة مثلية — وبالتالي تطغى بنا حتى تصبح نوعاً من الذرائعية الغير مبررة .

لا أزال في أغلب الأحوال إن لم يكن كلها ..لا أحسن عرض الفكرة أو حتى عرضها أحياناً بين مجمع الزملاء حتى ولو كانوا أصدقاء وبيننا مكاشفات في أمور عدة .. لكنني حين أجلس وحيداً



www.ibtesamh.com/vb

مع الورقة والقلم ، أجدني بلا محاذير أو رقابة أو متابعة ، ولا أحد يزاحمني .. فأكتب وهيئة منفسحة عن ذاك الخجل الذي يتلبسني وأنا مع الآخرين .

لا أستطيع أن أتكلم في الصخب ، ولا أقدر على توصيل ما أرغبه في الزحام .

أعتقد أننا لا نستطيع أن نجعل ظاهرة الانعزال ، التي تصاحب الكاتب المبدع شرطا قانونيا .

فليس كل الكتاب يؤثرون الانعزال ، وقت حالاتهم الإبداعية — دعنا نتحدث في إطار العزلة بعيدا عن الهيئات الغربية الأخرى — .. البعض تراكمت لديه هذه الظاهرة بطريقة العدوى ، وبالتالي ، فإن صفة الاكتساب كانت هي المبعث الأساسي في التصاقها به .

غير أن الذي يشغلنا ، تلك الرغبة الحنونة المبهمة ، التي تجذبه ليكون وحيدا منقطعا ، يدبر مملكة إبداعه الخاصة في خلوة لا يخالطه معها أي وجود خارجي .

لماذا ؟

وهل هي شرط ضروري لكي يبدع ؟

إن التشوه الذي يزاول تفاعلاته — حسبما يرى الكاتب — يقع في الخارج ، وبالتالي يرى أن ضرورة الانعزال هي إحدى الحلول الأولية والضرورية ، لكي يكون نقيا صافيا وعذبا راصدا أمينا ،



www.ibtesamh.com/vb

عندما ينقطع عن أي مؤثر خارجي وتكون علاقته فقط بالقلم والورقة .

من جهة مرادفة .. فإن انعزاله الذي يحتاج إليه بين وقت ووقت، أعني في غير حالات الإبداع يمثل نوعا من هذا التصور ، ويكون في معناها الهروب من التشوه ، واللجوء إلى الخلوة .. إنه لم يعد بقادر على تهذيب الخارج المجدور ، وبالطبع فنفي الإحساس بالعجز، كان دافعا نحو العزلة . إن من يفسرها بكره المحيط الخارجي .. قد لا يكون صائبا ، والدليل أن هذا الانكفاء هو من أجل الاحتجاج الضمني ضد كل ما هو خطأ ، احتجاج يأتي على هيئة إبداع ، على ماذا وعن من ؟ عن الخارج نفسه ، وفي حدود إمكانياته الدفاعية لتهذيب وإصلاح ما يراه فاسدا .

ليس بعيدا أن نشبهها بحالة المتخوف من عالم مجذوم .. فالابتعاد عنه يكاد يضمن — أو هكذا يرى — سلامته من الإصابة .

ولكن هذا لا يعني أنه يستطيع الحياة بدونه ، غير أنه قد لا يقيسها لحظتها بهذا المقياس ، وإذا كان صاحبنا .. قد صفق الباب، ووقف خلف ثقبه الصغير ليطل إلى الخارج .. فإنه يتأمله، ويتأمله وحيدا وبعينه هو ، ورصده هو دون مخالطة .

الانعزال هنا يعني له أيضا : مسرة ذاتية تمثل له ضرورة ، وليس مطالبا بتقديم مبرراته ، لأنه يحتاج إلى أن تكون مغلقة وسرية، وخفية الجوهر .



www.ibtesamh.com/vb

إن العزلة قد تأخذ شكل الرفض للخارج وليس الهروب فقط، ولكنه يبقى رفضاً إيجابياً على الغالب ، ذلك إن مردوده بالقياس الإبداعي .. هو الإنتاج ، فكثيراً من الأعمال الخالدة ، أنتجت في الأقباء بعيداً عن المخالطات و الأضواء وهذا لا ينفي أن الفنان .. إنسان اجتماعي ، ولا يعني أنه يتوق إلى الانفصال عن محيطه، بسبب بديهي ، وهو مستقي إبداعه من ذلك العالم .

وحين يقف بعيداً من خلف ستار جامد ، يراقب عن قرب شديد حركة الخارج .. فإنه بالمقياس — كذلك — قد لا يجد تجاوباً منه مع مقطع موسيقي أو أغنية .. إذا ما سمعها في ضجيج الحركة الخارجية.. بل يجدها بكامل فتافيتها فيما لو كان وحيداً ، وبعيداً عن وجوده الحتمي في الخارج .

فلو كان راكباً مثلاً مع سائق سيارة الأجرة ، وأدار الجهاز.. فبث شيئاً غنائياً يحبه لأنه قد يثور، ويطلب منه أقفاله ، ليس لأنه لا يرغب في سماعه — كما يعتقد السائق — ، بل لأنه يؤثر أن يحتضنه بلذة حين يكون وحيداً ، وكذلك فيما لو اشترى شيئاً من السوق، ثم جاء يركض إلى عزلته يلتمسها منعزلاً ، بعيداً عن الأنظار ولا يلبث أن يجد أنه ابتاع سلعة غالية أو مغشوشة أو غير مناسبة.

وهكذا فإن الصبغة الانعزالية ، تكاد تضع بصماتها في كل حياته ، وإذا كان يعايش عزلته في الانكفاء داخل قبوه .. فإنه قد لا يراه ، وقد لا يدركه كما الآخرون ، نحن فقط نتعارض معه ، أو



www.ibtesamh.com/vb

نحاول نزعها منه إذا ما ربطتنا به علاقة .. باعتبار أنها ظاهرة مزاجية ، ولكننا لا ندرك مدى طبيعتها عنده ، ومقدار ضرورتها في استمراره الإبداعي ..

أليست أحق من أن يكون متسكعاً دون رجاء معلوم ؟! .

ربما كان على الضفة المواجهة لحياة المبدع ، ذلك أنه الذي يستقي من تفاصيل إبداعه . ربما يواجهنا نموذج آخر بظاهرة مغايرة ونمطية مختلفة عن حد حالة الانعزال ..

تلك هي : حالة التسكع ، التي لا يغالى في كونها ظاهرة تكاد أيضاً تنطبق عليها بعض مواصفات الانعزال ، ولكنه انعزال داخل المحيط وليس خارجه .

إن المتسكع يزاول هذه الرغبة اللذيذة بنوع من الاحتفاء والانتصار على الواقع المؤلم ، وهو نوع من الاحتجاج الانفعالي المدرك ، ولكنه احتجاج معلن — يمكن معرفته بدلائل ليست خارجة عن الحيثيات — وإذا ما كان النموذجان يتوازيان — وبينهما نهر الإبداع الذي يجمع بين توازيهما .. فإنهما لا يتفقان كثيراً ، ولكن أكثر دقة : لا يتفقان طويلاً . مع هذا فهما لا يختلفان في فتافيت جوهرية في الحياة .



www.ibtesamh.com/vb

أعتقد أن للتربية الاجتماعية والذوقية ، والمفهوم الأول الذي تحيطه النشأة الأولى في العمر ، وأشياء من هذا القبيل .. دوراً في المفارقة .

دعنا من كثير من التفريعات .

نعود إلى ما هو سر العزلة في الكاتب " المبدع " ؟ !

.. من هذه الزاوية بالتحديد ، سأعطي جواباً شخصياً ( و بالطبع فسرد التفاصيل الصغيرة هنا أحيانا ، ليست إلا رافداً قد يكون مدعماً أو مبرراً _ حسبما أرى – لتثبيت المقولة التي افترضها ) لقد رأيت أن كثيراً من المزاولات .. تتطلب الإنعزال وبصورة ، تختلف باختلاف تأملك للمعطيات غير المنقطعة ، وشديدة الحساسية والأمانة .. : إن تجد أنك لا تستطيع أن تتجاوب مع المقطع الموسيقي أو الغنائي ، وأنت في محضر مشارك آخر ، ومع أنه ذات المقطع ، وأنت صاحب الأذن، وصاحب القناة المستقبلة لذلك النتاج المؤثر فيك ذاتك ...إلا أن طقس الامتلاء الشعوري الذوقي لا تجداه ملائماً للتقبل ..إلا أنك تفضل أن تحتضنه بمفردك في عزلتك خذ مثلاً : أن أخجل من التخاطب مع طرف آخر على سماعة الهاتف أمام ملاقط الآخرين المعرفية .. قد تعتبر الأمر طبيعياً، وتربطه بعوامل التربية الاجتماعية ، ربما يكون في هذا جزء من الصحة – لكن افتراضك هنا – يعتمد على أن الطرف الآخر سيكون مهماً عندي ، أو يعني شيئاً نادر الحصول ، أو صعب



www.ibtesamh.com/vb

التوفير.. لا ، لم أقصد هذا ، ولكنني أفترض أن الآخرين يسترعجون من شخص يقف خلفهم ، أمام صندوق الهاتف العمومي ليأخذ دوره معهم ، وبالطبع .. لا أقف خلف أحد ، وهكذا .

أنني أحس بالانتصار ، عندما أقابل أحداً غريباً عن محيط معرفتي، فأفتح معه حواراً .. قد يقابلني فيه بما لا يرضي .. لكنني أراه تفوقاً لكسر القوقعة العازلة . أجده زاداً لوقت طويل أتحلل فيه منعزلاً .

أكذب أحياناً ، وبطرق استثنائية حذقة ، وأبالغ في صياغة المعاذير.. لكي أخلو بنفسي ، ويحدث هذا دائماً حتى مع أقرب الناس إلى خصوصياتي .

إن أكثر الأصدقاء — على مستوى الخارج والقبول — أولئك الملّحون ، ودائماً أربط بينهم وبين شاعرنا القديم : " ومن نكد الدنيا على المرء .. " ولكنني ظالم لنفسي وجدولي اليومي إذا ما تورطت مع أحد ، وخجول إلى حدود الغفالة والبله .

أعتقد أن تفاصيل كهذه ، لا بد من فحصها للوصول إلى جواب على السؤال المتقدم ، ولكن هل وظفت تلك العزلة توظيفاً إيجابياً : بحيث يتصالح في توازنه مع الخارج ؟



www.ibtesamh.com/vb

أظن أن هذا مطلوب ليتم قانون الاستمرار الطبيعي في المحافظة على استقامة الذات ، التي لا تستطيع الانفصال .. لأسباب يهمنا فيها مواصلة العطاء ، قد لا يكون حلا .. لكنه يقلقني .

إن العزلة إذا تمكنت سلبيتها من الكاتب .. فإنها تنعكس بالضرورة على إبداعاته الكتابية ، إذ ما يلبث أن يجعل من ذاته محورا ، حوله تتلولب أطروحاته ، وبالتالي فإن نتاجه يدور حول مشكلته هو كمنعزل متغرب ، فرضت عليه العزلة بأقفالها تواجيد ذاتية .. يبقى يعوي في كتابات ضمنها ، وإذا ما أراد أن يفك لذة الحصار تلك .. فإنه يقدم ذاته كنموذج مطروح يمثل الخارج، وكعينة متوفرة في المحيط ، وهذا غير صحيح ، لأنه الموضوعية تقول : إنه عينة تمثل ذاتها فقط ، حتى ولو كانت على الصعيد الطبقي .. فالإصلاح لا يبدأ من هنا — أي من كسر العزلة الفردية الآتية من ذات الفنان – ، بل هي من الخارج الذي ينعكس عليه بالتطور ، والتحول نحو الأصلح والأجمل .. فإذا كان انعزاله لا اختياري ، فإنه بالضرورة سيكون ودون مقدمات حريصا على توظيف عزلته في شئون تتعلق بالخارج ، وليس توجيها نحو الضد الداخلي .

وعليه فإن ما سميته بـ " المزاجية " تنطوي تحت لواء الاختيارية ، بنسبة عالية تربت على افتراض الهروب والانتكاس .



www.ibtesamh.com/vb

إنه نوع من إرضاء رغبته الانزواء .. بلحظتها ووقت تفاعلها المزاجي .. بمعنى أنه يمكن إلقاءها إذا أراد ، هي قد تكون على الآخرين سواء في الشعور أو في أحقيتهم كعنصر خارجي ، يحتاج — دون معرفة — إلى إيجابيات المبدع والمثقف .

إننا نقرأ محصلة كتابية لا يجب أن نستهين بوفرتها ، وفيها نسغ الإبداع ، وصنوف التشكيل النصي ، وبلاغة الصور الشاعرية .. لكننا نخرج منها بشعور يمتلئ بالغربة ، وبالخيبة والثكل ، وحين نتأمل ما قرأناه نجد أن الكاتب يقدم لنا ذاته الاغترابية المثقفة الانعزالية الاختيارية .. تلك التي تدين المحيط ، وتفترض فيه المعرفة الكاملة والتي كان يجب عليها أن تلتفت إليه ، ومن هنا .. فإن تفريغ دواخله هو احتجاج ضمني على قمع ذاته ، التي تتطلب الخارج بالنظر إ ليه كوحدة نموذجية معذبة ؟ بدلا من أن يلتفت قليلا إلى الوجه الآخر ، ليرى أن التشوه الخارجي يحيطه ويحيط التفريقات الاجتماعية الكامل تصانيفها ، وهو جزء منه — أي الكاتب — وليس العكس .

نحن لا نستطيع الاقتراب من مفهوم العزلة عند الكاتب، والمبدع عموما ...ما لم نتعرف على مفهومه للحياة ، رؤيته لواقعه



www.ibtesamh.com/vb

الاجتماعي ، ومثلما مررنا ببعض الحـــالات الخاصـــة — في هـــذا الفصـــل — التي أرى ضرورة لكشفها .. فإن ضـــرورة معرفـــة أي جانب آخر ، قد يقودنا إلى تفسير مقبول .. ربمـــا اســـتطعنا مـــن خلالهـــا تجنب سيئات تداولها دون أن نفحصها ، ثم مـــا نلبـــث أن نتركها على قارها .. حتى تصبح جزءاً مـــن حياتنـــا ، وســـلوكنا وعادات تعاملنا و علاقتنا بالخارج وبكل الأشياء الطبيعية .

وإذا ما اعتبرنا المبدع شاهداً — يعنينا الكاتب هنـــا — .. فإننـــا نفترض في شهادته الأمانة ، في بقعة زمنية محددة ، تحمـــل صفـــات معيشتها وخصائص مكانها ، ونفترض أن كل المحيط الخارجي أمانـــة في رقبته، دون افتراض المعرفة المســـبقة فيـــه ، ونفـــترض إدانتـــه بالحتميـــة، فالمسار التاريخي لا يقبل المداراة ، حتى ولو حاولنا عصب عينيه ، وليس من العدل في الكاتب إدانة المحيط وقتما لا يتساير مـــع ادعاءاتـــه الإصلاحية .. فالكتابة كرافد يصعد المفـــاهيم الإنســـانية الخيرة، يحتـــاج إلى روافد أخرى خارج طاقته ورغبته الســـريعة في التوصيل .

ومع أننا نحاول استعادة توازننا .. إلا أننا نتحرق شوقاً لتلمـــس فعاليات إبداعاته ، وأظن هذا لا يخل باستراتيجية الكتابة .. بل ربمـــا كان دليل صحة للمواصلة ، ولكن علينا في المقـــابل .. ألا نحمـــل الكتابة الإبداعية أكبر من قدرتها في التأثير على المحيط .



www.ibtesamh.com/vb

# الفهرس


| العنوان | الصفحة |
|---|---|
| أما قبل | ٥ |
| الكتابة والكتابة | ٩ |
| الكتابة والطفولة | ٤٧ |
| الكتابة والقرية | ٥٩ |
| الكتابة والمناخ الاجتماعي | ٨٩ |
| الكتابة والمرأة | ١٠٧ |
| الكتابة والمرض | ١٣٠ |
| الكتابة والعزلة | ١٧٦ |




www.ibtesamh.com/vb

## تحية شكر:

نُشر كتاب" مكاشفات السيف والوردة " على حلقات متتابعة في جريدة اليوم بإشراف شاكر الشيح ، ثم صدر في طبعته الأولى عن نادي أبها الأدبي بمتابعة محمد زايد الألمعي ، وقد وجه الكاتب في تلك الطبعة تحية شكر لهما و لأخويه أحمد وعبد الرحمن مشري لإسهامهم جميعاً في إخراج هذا العمل .



www.ibtesamh.com/vb

المعالجة وتخفيض الحجم
فريق العمل بقسم
تحميل كتب مجانية

بقيادة
** معرفتي **

www.ibtesamh.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

شكرا لمن قام بسحب الكتاب

www.ibtesamh.com/vb

www.ibtesamh.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة
نسخة معالجة ومخفضة

" يعتبر عبدالعزيز مشري من المبدعين الروائيين البارزين في السعودية وفي الوطن العربي، حيث تتميز كتاباته بدرجة عالية من الصدق الفني، الذي استطاع من خلاله تقديم وجدان الإنسان السعودي الضارب بجذوره في أعماق التاريخ وتراث الحياة القديمة، ولذلك تنبعث من ثنايا سرده الروائي والقصصي، الذكريات والحكايا المفعمة بالشجن والتشبث بالجذور"

## الروائي "صنع الله إبراهيم"

" حبست نفسي في غرفتي يوماً كاملاً بنهاره وليله لقراءة المشري وإعادة قراءته، وكما قلت (من قبل)، لم يشد انتباهي في الأعوام الأخيرة أي عمل محلي أو عربي سوى "الطوق والأسورة"، وسوى "الوسمية"، وقد أحسست أنه عمل أدبي لا يرقى إلى مستوى "الطوق والأسورة" فحسب، بل يكاد يرقى إلى مستوى أي عمل أدبي عالمي كرواية "مائة عام من العزلة" لماركيز.
(جريدة الرياض - ملحق ثقافة اليوم ١٤ ابريل ١٩٨٨م) .

## الناقد : عابد خزندار

" ومنذ أن عرفت "المشري" وأنا أتشبث بأجمل وأعظم ما فيه، وما في كتابته، وهو هذه القدرة الغريبة العجيبة على التعالي فوق كل ألم والتسامي بكل معاناة، إلى مرتبة المعاناة الإبداعية المنتجة لهذا النص الإبداعي الجميل المتصل أبداً "

## الناقد : د. معجب الزهراني

" وحين تقرأ للمشري، فأنت أمام إشراقات إبداعية منهمرة من ثقوب التجربة في احتكاكها بلحم الواقع في شراسته وخشونته وتوليفته العجيبة، أنت أمام عمل يتمرد على مواضعات الهيكلة والقولبة والتقنين والتنظير، فهو يقيم هندسته الخاصة من شظايا الشروخ التي عصفت بكيانه الإنساني على المستوى الذاتي والعام معاً .

## الناقد د. محمد الشنطي

# أصدقاء الإبداع

أصدقاء عبد العزيز مشري

الدمام - مطابع الايمان تلفون: ٨٤٧٢١٤١ - فاكس: ٨٤٧٢١٤٥

www.ibtesamh.com/vb

www.ibtesamh.com/vb